روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

القضبان الجليدية

٤٥

باسل

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رجل المستحيل ● القضبان الجليدية ● ٤٥ ● المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة ●

المؤلف



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة



الثمن فى مصر

وما يعادل دولارا أمريكيا فى سائر الدول العربية والعالم.

القضبان الجليدية

- هل انتهت حياة (أدهم صبرى) فى معتقل (سيبيريا) ، وانتهى عمله فى المخابرات المصرية ؟
- لماذا حاول (أدهم صبرى) الفرار ، بعد أن كان قد استسلم تمامًا لقدره ؟
- تُرى .. أينجح (أدهم صبرى) فى الهرب ، واختراق قضبان (سيبيريا) الجليدية ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة .. لترى كيف يعمل (رجل المستحيل) .



العدد القادم : لهيب الثلج

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ ــ وجاء الربيع ..

وقف مدير المخابرات العامة المصرية ، يتطلّع من خلف نافذة مكتبه الزجاجية الكبيرة ، إلى ساحة مبنى المخابرات ، التى بدت هادئة ، لا توحِى بذلك الخِضَمّ من النشاط ، الذى تمُوج به إدارة المخابرات العامة ، وتركّز بصره فى شرود ، على عصفور صغير ، انهمك فى بناء عشه ، فوق غصن شجرة قريبة ، وسط جوّ الربيع الجميل فى مصر ..

كانت الأزهار قد تفتحت فى كل مكان ، وبدا الطقس مثيرًا للبهجة ، إلّا أن ملامح مدير المخابرات لم تكن توحِى إلّا بالحزن ، والشرود ..

لم يتحرّك من وقفته الثابتة ، ولم تفقد عيناه شرودهما ، عندما دخل المقدّم (حازم عبد الله) إلى حجرته ، وتنحنح لينبّهه إلى وجوده ، فاكتفى مدير المخابرات بأن قال فى هدوء :

ــ هل من جديد يا (حازم) ؟

أجابه (حازم) :

ـ كل رجالنا فى (موسكو) يعملون جاهدين ، منذ ثلاثة شهور كاملة ، دون أن يُضيفُوا معلومة جديدة عن اختفاء (أدهم صبرى)(*) .

غمغم مدير المخابرات :

ـ ثلاثة شهور كاملة !!

أطرق (حازم) فى أسف ، وقال :

ـ يبدو أننا فقدنا (رجل المستحيل) يا سيِّدى .

غمغم مدير المخابرات :

ـ والنقيب (منى توفيق) أيضًا يا (حازم) .

تنهَّد (حازم) ، وقال :

ـ مصرع (منى) مؤكد يا سيِّدى .. فلقد رآها العشرات مضرجة فى دمائها ، وسط ثلوج (موسكو) ، ولقد سقطت من الطابق الثانى و ....

قاطعه مدير المخابرات فى حنق :

ـ ولكننى أشعر أن (أدهم) مازال على قيد الحياة .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال (حازم) فى بطء :

* راجع الجزء الأول من قصة (العين الثالثة) .. المغامرة رقم (٤٤) .

ـ لو أنه كذلك ، فسيعنى هذا أنه فى مكان ، هو قبر من الثلج ، والموت أفضل من الحياة فيه .

عقد مدير المخابرات حاجبيه ، وغمغم فى قلق :

ـ هل تعنى ...؟

لم يتم عبارته ، ربما لهول الفكرة ، ولكن (حازم) تابع قائلًا :

ـ نعم يا سيِّدى .. فى معتقل .. (سيبريا) ، أكثر معتقلات العالم هَوْلًا .

ساد صمت ثقيل بينهما ، بعد هذا التصريح المخيف ، ثم غمغم مدير المخابرات فى توتُّر :

ـ لو أنهم أرسلوا (أدهم) إلى هناك ، فكل ما أتمنَّاه له هو الموت .

* * *



٢ ــ حيث لا تشرق الشمس ..

المكان : (سيبيريا) ..(*) .

الزمان : الحادى والعشرون من مارس ، والمعروف فى العالم أجمع باسم (عيد الربيع) ..

الرجل : شاب فى النصف الثانى من الثلاثينات ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، أبيض البشرة ، ازداد جسمه نحولًا ، عن مظهره فى يناير السابق ، وبرزت عظام وجهه ، لتخفى الكثير من وسامته السابقة ، على حين ترك شعره الأسود الناعم ينسدل على جبهته بلا نظام ، ونمت لحيته ، على نحو يوحى بأنه لا يحلقها إلا كل عشرة أيام على الأقل ، وبدت ثيابه رثة ، متهالكة ، على الرغم من برودة الجو من حوله .

---

* (سيبيريا) : الاسم الشائع لمعظم الجزء الآسيوى من (روسيا) [١٢٧٥٣٤١٩ كم٢] ، وتمتد من جبال الأورال حتى المحيط الهادى ، ومن المحيط القطبى حتى منغوليا ومنشوريا ، بها حوض الفحم الشهير (كوزنتسك) ، وبحيرة (بيكال) ، وشبه جزيرة (تشكوتشى) .

المؤلف

المهنة : ضابط سابق بالمخابرات العامة المصرية ، يدعى (أدهم صبرى) ، كان يعرف قديمًا بلقب (رجل المستحيل) ..

لم يعُد (أدهم صبرى) كما عرفناه سابقًا ..

لم تعُد تطلّ من عينيه تلك النظرة المتألقة ، التى تفيض حماسة ونشاطًا ..

أصبح رجلًا آخر ..

رجلًا استسلم لمصير أسود مظلم ، فى أكثر المعتقلات هَوْلًا ..

فى هذه اللحظة ، التى تبدأ فيها قصتنا ، كان يستند بظهره إلى جذع شجرة قديمة ، وهو يحمل بين راحتيه وعاءً من الخزف القديم ، يحتوى على حساء له رائحة نفّاذة مقزّزة ، وإلى جواره استقرَّ رغيف من خبز كاد سواده يطغى على بياضه ..

كان يتناول وجبة الطعام اليومية ، بعد عمل يوم كامل ..

اقترب منه رجل بالغ التُّحول ، وجلس إلى جواره ، وقال وهو يقضم قطعة من الخبز ، ويلوكها فى فمه بلا شهية :

ــ هل يعجبك مصيرنا هذا يا ضابط المخابرات المصرى ؟

بدا جواب (أدهم) باردًا كالثلج ، وهو يقول :



كان يستند بظهره إلى جذع شجرة قديمة ، وهو يحمل بين راحتيه وعاءً من الخزف القديم يحتوى على حساء له رائحة نفاذة ..

ـ هذا قدرنا .

ظهر الغضب على وجه الرجل الآخر ، وقال فى حَنَق :

ـ قدرنا ؟!.. لقد جلبت أنت هذا المصير ، بإصرارك على مطاردتى إلى (موسكو) .

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتى (أدهم) ، وأغلق عينيه ، وهو يستعيد كل ماحدث منذ أسندت إليه المخابرات المصرية مهمة إعادة (أندريه جريج) ، جاسوس منظمة (سكوربيون) ، من (موسكو) إلى القاهرة ..

لقد بدت المهمة شاقة منذ البداية ، فقد وصل وزميلته السابقة (منى توفيق) إلى (موسكو) ، فى الأيام الأخيرة من ديسمبر ، حيث تنخفض درجـــة البرودة إلى ثلاثين تحت الصفر ، وحاولا إعادة (أندريه) ، ولكن (ياكوف) ، مدير مكتب مكافحة التجسُّس السوفيتى ، كشف أمرهما بمحض الصُدفة ، وبدأ يضيق الخناق حولهما ، وحول (أندريه جريج) أيضًا ..

تذكَّر (أدهم) كيف أعَدّ لهما (ياكوف) فخًا ، بمعاونة (أندريه) ، الذى كان يحاول الإفلات ، بمعاونة السلطات السوفيتية ..

تسلل حزن عميق إلى قلبه ، حينما استعادت ذاكرته موافقة (منى) على الزواج منه ، ثم مصرعها فى ذلك الفخ ، برصاص الجنود السوفيت ، واعتقاله ، ونفيه إلى (سيبيريا) ..

ثلاثة شهور مضت ، وهو مستسلم تمامًا لمصيره ، وكأنه يعاقب نفسه على استمراره فى أداء المهمة ، بعد أن وصله الأمر بإيقافها من القاهرة ..

كان يَعُدُّ نفسه مسئولًا عن مصرع (منى) ، بعد أن لقيت حتفها فى غمرة عناده ، وإصراره على الفوز فى مهمة ملغاة ..

وهاهو ذا الآن ، وبعد ثلاثة شهور ، يجلس جنبًا إلى جنب ، مع نفس الجاسوس ، الذى كان يهدف إلى استعادته ..

لم يعُد هناك فارق ..

أفاق من ذكرياته على صوت (أندريه جريج) ، وهو يقول فى حَنَق بالغ :

ـ نعم .. أنت المسئول عن كل هذا العذاب ، الذى نلاقيه هنا ..

أشاح (أدهم) بوجهه فى برود ، على حين استطرد (أندريه) ، فى غضب :

ـ أنت وعنادك السخيف .. أنت وصديقتك الحمقاء .

عند هذه النقطة ، وعندما ذكر (أندريه) (منى) ، ونعتها بالحماقة ، ارتفعت قبضة (أدهم) فى سرعة ، وهوَت على أنف

(أندريه) ، الذى ترنَّح ، وانسكب وعاء الحساء البارد من يده وتساقطت من أنفه بضع قطرات من الدم ، وهتف فى ألم :

ـ يالك من وحش !! لقد حطَّمت أنفى !!

انفصل أحد المعتقلين عن رفاقه ، وأسرع إلى حيث يجلس (أدهم) و (أندريه) ، وأسرع بفحص أنف هذا الأخير ..

من العبث أن نقول إن هذا الرجل الثالث كان نحيلًا ، فكل نزلاء معتقل سيبيريا يتميَّزون بالنُّحول الشديد ، باستثناء هؤلاء الذين وصلوا توًّا .. ولكن الرجل كان أشد نحولًا من المعدل الطبيعى ، وكان يرتدى بقايا منظار طبِّى ، عدَّله فوق أنفه وهو يقول :

ـ اطمئن يا رفيقى .. سنضع بعض الثلوج على الجرح و ....

قاطعه (أندريه) فى حَنَق :

ـ ابتعد أيها الطبيب الفاشل .

تراجع الطبيب المسكين فى صغار ، على حين سأله (أدهم) بالروسية :

ـ أأنت طبيب حقًّا ؟

نظر إليه الرجل فى حذر ، وغمغم :

ـ عجبًا .. إنك تتحدَّث الروسية بإتقان شديد ، لماذا يقولون إنك ضابط مخابرات مصرى إذن ؟

ابتسم (أدهم) فى شحوب ، وقال :

ـــ دَعْهم يقولون ما يحلو لهم يا صديقى .

هزَّ الرجل رأسه فى حَيْرة ، وغمغم :

ـــ نعم أنا طبيب حقيقى ، ولقد كنت واحدًا من أشهر الجراحين فى مستشفى (موسكو) ، ولكننى نقلت إلى هنا ، حيث لا تشرق الشمس ، يوم السابع من يناير الماضى .

غمغم (أدهم) ، وهو يسند رأسه إلى جذع الشجرة :

ـــ منذ ثلاثة أشهر وواحد وعشرين يومًا إذن .

تطلَّع إليه الرجل فى دهشة ، وقال :

ـــ لست أدرى كيف أمكنك إحصاء المدة، ولكن هذا صحيح.

عاد (أدهم) يسأله :

ـــ وهل يعتقل السوفيت أطباءهم الآن ؟

مطَّ الطبيب شفتيه فى أسىً ، وقال :

ـــ هذا لا يحدث فى العادة ، ولكنهم اعتقلونى بسبب عملية جراحية ناجحة ، كنت أتصوَّر أننى سأحصل على وسام الجدارة بعدها .

عقد (أدهم) حاجبيه ، وسأله فى حَيْرة :

ـــ عملية جراحية ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

ـــ نعم يا صديقى .. عملية جراحية ، أنقذت بها

بمعجزة ، فتاة مصرية ، تلقَّت تسع عشرة طلقة نارية فى جسدها ، عشيَّة عيد الميلاد و ....

بتر الطبيب عبارته فجأة ، وهو يرتجف ، فقد تألَّق فى عينى (أدهم) بريق عجيب ، واشتعلت ملامحه كلها ، وهو يقفز إلى الطبيب ، صائحًا فى انفعال عجيب :

ـــ فتاة مصرية ؟!.. عشيَّة عيد الميلاد ؟!.. ما اسمها يا رجل ؟

تراجع الطبيب النحيل فى ذُعر ، وهتف :

ـــ لستُ أدرى .. أقسم لك .

هتف (أدهم) ، وقد ازداد تألُّق عينيه ، وبلغ انفعاله ذروته :

ـــ صِفْ إصاباتها إذن ، وأخبرنى ما آل إليه أمرها .

ازدرد الطبيب لعابه فى جزع ، وقال :

ـــ لقد أصيبت ـــ كما أخبرتك ـــ بتسع عشرة طلقة نارية ، وسقطت من الدور الثانى ، و ....

تهدَّج صوتُ (أدهم) وهو يقاطعه :

ـــ هل شفيت ؟!.. أعنى ألم تفارق الحياة ؟

عدَّل الطبيب وضع منظاره الطبِّى المتهالك ، وقال :

— المفروض أنها كذلك .. فلقد اعتقلتنى السلطات بعد أن استعادت وعيها و ....

عاد (أدهم) يقاطعه :

— لماذا اعتقلتك السلطات ؟

تلفَّت الطبيب حوله فى قلق ، ثم همس :

— يبدو أنهم كانوا يريدون الاحتفاظ بأمر الفتاة سرًّا .. فقد اعتقلوا كل فريق العلاج و ....

قاطعته تنهيدة عميقة من أعماق (أدهم) هذه المرَّة ..

عادت فورة الحماس والقوة إلى نفس (رجل المستحيل) ، فور معرفته بنجاة (منى) ..

ولكن هذه المعرفة أعادت إليه صلابته ، وعناده السابق ..

وأضاء أمامه هدف ، نما فى عروقه بسرعة عجيبة ..

كان على (رجل المستحيل) أن يقهر المُحال مرَّة أخرى ..

كان عليه أن ينفذ من القضبان الجليدية ..

من (سيبيريا) .

* * *

٣ — المستحيل ..

أشعل الرفيق (إيفانوف) واحدة من سجائره السوفيتية ، ذات الرائحة النفَّاذة ، وأخذ ينفث دُخانها فى بطء وهدوء ، وهو يتطلَّع إلى رفيقه (ياكوف) ، الذى انهمك فى مطالعة بعض تقارير التصنُّت ، ثم لم يلبث أن سأله :

— ألمْ تُدلِ الفتاة المصرية بأقوالها بعد ، أيها الرفيق الجنرال ؟

رفع (ياكوف) عينيه إليه ، وأزاح التقارير جانبًا ، وقال فى صوت يشفّ عن ضيقه :

— إنها لم تستعدْ ذاكرتها بعد أيها الرفيق ، هذا ما يقوله أطباء الإدارة .

عاد (إيفانوف) ينفث دُخانَ سيجارته فى بطء ، وقال :

— لقد قاربت الشهور الأربعة .

أومأ (ياكوف) برأسه موافقًا ، وقال :

— هذا صحيح .. ولكنها حتى الآن لاتعرف من هى .. وما سبب قدومها إلى هُنا .

عقد (إيفانوف) حاجبيه ، وغمغم :

ــ ربما كانت تتظاهر بذلك .

هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لا .. ولكن الصَّدمة النفسية التى تعرَّضت لها ، وإصاباتها البالغة ، محَت من عقلها كل ما يتعلَّق بالحادث .

عاد (إيفانوف) يسحب أنفاس سيجارته ، وسط الصمت الذى ساد بينهما لحظة ، والذى قطعه هو قائلًا :

ــ ولكن لماذا أخفيت خبر شفائها أيها الرفيق الجنرال ؟

صمت (ياكوف) ، وشرد ببصره بعيدًا ، وكأنه يستعيد ذكرى قديمة ، ثم عاد ينظر إلى (إيفانوف) ، قائلًا :

ــ من الأفضل أن تؤمن المخابرات المصرية بمصرعها ، وبمصرع زميلها الشيطان ، حتى لا تبدأ مفاوضات السياسيين لاستعادتهما ، قبل أن نستكمل معلوماتنا منهما .

ابتسم (إيفانوف) ، وقال :

ــ وهل تعتقد أن زميلها سيُدلى بما لديه ؟

ابتسم (ياكوف) بدوره ، وهو يهزّ رأسه نفيًا ، ثم قال :

ــ إنه أكثر صلابة من أن يفعل .. ولقد تصوَّرت فى البداية أنه سيعمد إلى محاولة الهرب من (سيبيريا) ، ولكن يبدو أنه استسلم تمامًا لقدره هناك .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إيفانوف) ، وقال :

ــ الهرب من (سيبيريا) ؟!.. لابدَّ أن يكون مجنونًا تمامًا ، حتى تخطر هذه الفكرة الحمقاء برأسه .

ابتسم (ياكوف) ، وقال :

ــ كل المعتقلين هناك تراودهم هذه الفكرة فى البداية ، ثم تنهار مع كل يوم يمُرُّ بهم .. ، إن (سيبيريا) هى مقبرة أعداء النظام يا رفيقى .. إنها النهاية لهم .

* * *

استيقظ (أندريه جريج) على هزَّات خفيفة لكتفه ، وهو يرقد وسط عشرة من المعتقلين ، فى زنزانته الباردة .. ولم يكد يفتح عينيه ، حتى ارتجف جسده ، وندَت من حلقه شهقة دهشة ، وهو يتطلَّع فى الضوء الخافت ، إلى الرجل الذى أيقظه ، واعتدل جالسًا ، وهو يهتف فى صوت خافت :

ــ كيف وصلت إلى هنا ؟!.. كيف تجاوزت كل هؤلاء الحرَّاس ؟

أجابه (أدهم صبرى) فى هدوء ، لا يخلو من السخرية :

ــ لقد استغرقوا فى النوم ، بعد مجهود اليوم الشاق .. صدِّقنى إنهم سجناء مثلنا .

ظلَّ (أندريه) يتطلَّع إليه فى دهشة ، ثم سأله فى همس :

ــ وماذا تريد منِّى ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ سترافقنى فى رحلة الهروب من هنا .

اتسعت عينا (أندريه) عن آخرهما ، وهتف فى ذهول :

ــ أرافقك ؟!.. هل بلَغ بك الجنون .... ؟

قاطعه (أدهم) بإشارة من يده ، وعاد يقول فى حزم ، وعيناه تتألقان فى صرامة :

ــ سترافقنى أيها الوغد ، فسأعود بك إلى القاهرة ، سواء رضيت أم أبيت .

هتف (أندريه) فى صوت خافت حانق :

ــ إلى القاهرة ؟!.. هل تظن أنك ستغادر هذه القضبان الجليدية هكذا ؟.. هل تعلم ماذا سنواجه إذا ما حاولنا الهرب ؟

أجابه (أدهم) فى برود :

ــ سنواجه أهوالًا لا حصر لها ، ولكنها أفضل بكثير من هذه الحياة التى نحياها هنا .

عقد (أندريه) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ــ لن أرافقك ، فأنا لا أتعجَّل الموت .

بدا صوت (أدهم) كالفولاذ البارد ، وهو يقول فى صرامة :

ــ إننى لا أمنحك حق الاختيار أيها الوغد .. سترافقنى أو أقتلك هنا .

ارتجف جسد (أندريه) ، وبدت الحَيْرة والذُّعر فى كل لمحة من وجهه ، ثم لم يلبث أن غمغم فى حَنَق :

ــ ومتى تفكِّر فى الفرار ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ الليلة .

صرخ الذهول فى وجه (أندريه) ، واحتبس صوته وهو يحدِّق فى وجه (أدهم) ، ثم لم يلبث أن قال بصوت متحشرج :

ــ أنت تسعى للمستحيل أيها الشيطان المصرى .. هل تسمعنى ؟.. المستحيل !!

* * *

تململ الجنرال (بودسكى) فى فراشه بقلق هذه الليلة ، فعلى الرغم من أنه قائد معسكر الاعتقال فى (سيبيريا) ، وعلى الرغم من كل المميِّزات التى يتمتع بها بحكم منصبه ، كالمسكن الأنيق المكيَّف الهواء ، والفراش الدافئ الوثير ، والطعام الشهى ، والشراب المنعش اللذيذ ، إلَّا أنه كان يشعر دومًا أنه سجين فى

المعتقل ، فهو لا يحصل إلَّا على خمسة أيام فقط كإجازة كل شهرين ، حتى أن ارتباطه بأسرته باتَ ضعيفًا واهيًا ..

كان يعانى فى هذه الليلة أرقًا شديدًا ، وحنقًا غصَّ به حلقه ، فنهض من فراشه ، وأشعل إحدى سجائره ، وأخذ ينفث دخانها فى ظلام الحجرة ..

وفجأة .. خُيِّل إليه أن تيارًا باردًا قد صبَّ على ظهره ، من نافذة حجرته ، فاستدار إليها فى دهشة .. ولم يكد يفعل ، حتى تثلَّجت أطرافه ، وسقطت سيجارته من بين شفتيه ، وسقطت فكُّه السفلى ، وهو يتطلَّع فى ذهول إلى شبح رجل طويل القامة ، وقف هادئًا ، عاقدًا ساعديه أمام صدره ، وقد أخفى ظلام الحجرة ملامحه تمامًا ..

هتف الجنرال (بودسكى) بصوت مبحوح مضطرب ، فشل فى صبْغه بالصرامة اللازمة :

— من هنا ؟

اقترب منه الشبح فى بطء وهو يقول بالروسية :

— الرفيق (ياكوف) ، من إدارة مكافحة التجسُّس أيها الرفيق الجنرال .

ازداد اتساع عينا (بودسكى) ، وهو يغمغم :

— (ياكوف) ؟!.. كيف وصلت إلى هنا ؟ وكيف ....

بتر عبارته فجأة ، عندما وقع بصره على وجه الرجل ، الذى سقطت فوقه بقعة صغيرة من الضوء ، وتصلَّبت كفّ (بودسكى) على مسند مقعده ، وهو يهتف فى ذُعر :

— إنك لست ....

قبل أن يتم عبارته ، هوَت على فكِّه لكمة ذات بأس ، ألقته من فوق مقعده ، وحاول هو أن ينهض بجسده البدين ، ولكن الرجل انحنى فوقه ، وقال فى لهجة ساخرة :

— هل تعرَّفتنى أيها الرفيق الجنرال ؟

شىء ما فى عينى (أدهم صبرى) ، اللَّتين تجمعان بين الصرامة والسخرية ، أثار رجفة فى جسد الجنرال السوفيتى البدين ..

لقد عرف ملامح (أدهم) فورًا ، وتذكَّر ما قصَّه عليه (ياكوف) من قدراته الشيطانية .. أضف إلى ذلك حالة الذهول والمفاجأة ، اللتين انتابتاه ، حينما رأى (أدهم) فى حجرته الخاصة .. كل هذا جعله يشعر بخوف عميق ، وهو يغمغم :

— ماذا تريد أيها المصرى ؟

سأله (أدهم) فى هدوء :

— كلمة سرُّ الليل .

قبل أن يتم عبارته ، هوت على فكه لكمة ذات بأس ،
ألقته من فوق مقعده ..

قال (بودسكى) فى عناد :

ــ لن تعرفها ولو قتلتنى .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخرية ، وأحاط عنق الجنرال البدين براحتيه ، ثم ضغطه فى قوة ، وهو يقول فى هدوء :

ــ هل تقترح ذلك ؟

جحظت عينا الجنرال (بودسكى) ، وهو يحاول المقاومة ، ولكن ساق (أدهم) كانتا تمنعان ذراعيه من الحركة ، وكفى (أدهم) يضغطان عنقه فى قوة ، حتى كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فغمغم فى صوت مختنق متحشرج :

ــ حسنًا .. سأخبرك .

خفف (أدهم) من ضغط كفيه لحظة ، وسأل الجنرال فى هدوء :

ــ ما هى ؟

أجابه الجنرال ، وهو يملأ صدره بالهواء :

ــ إنها (جليد) ..

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

ــ شكرًا أيها الرفيق الجنرال .. هذا كل ما أحتاج إليه منك .

ثم هوت قبضته فى قوة على فك (بودسكى) ، فأرسلته فى نوم عميق .

* * *

٤ ـ الجليد ينهمر ..

لم يدر الجنرال (بودسكى) كم مرَّ عليه من الوقت فى غيبوبته ، ولكنه حينما فتح عينيه ، وجد نفسه مقيَّدًا فى قوة فوق فراشه ، ومكمَّم الفم ، وحاول عبثًا التخلُّص من قيوده ، ولكنه فشل ، وبينما كان يحاول ، سمع صوتًا ساخرًا يقول :

ـ هل استعدت وعيك أيها الرفيق الجنرال ؟

استدار (بودسكى) إلى مصدر الصوت فى ذهول ..

لم تكن الكلمات هى مبعث ذهوله ، ولكنه الصوت ذاته ..

لقد خُيِّل إليه أنه يستمع إلى صوته هو نفسه ..

وتطلَّع فى ذهول إلى الرجل الواقف أمام مرآة حجرته ، يعدِّل من وضع قبعته الرسمية فوق رأسه ..

لوهلة ظن أنه يتطلَّع إلى نفسه ، بجسده البدين ، ووجهه المنتفخ ، وحُلَّته الرسمية ، التى تحمل عددًا لا بأس به من الأوسمة ، ولكنه لم يلبث أن انتبه إلى اختلاف ملامح الرجل الواقف أمام المرآة ، عن ملامحه هو ..

اختلاف طفيف ، لا يكاد يكون ملحوظًا وسط ضوء الحجرة الخافت ..

حاول أن يهتف فى دهشة ، ولكن الكمامة فوق فمه منعته من ذلك ، ورأى (أدهم) يستدير إليه ، قائلًا فى هدوء :

ـ لقد استعرت كل وسادات فراشك ، حتى يمكننى ملء حُلَّتك الواسعة ، أيها الرفيق الجنرال .. ولقد تعبت كثيرًا ، فى الحصول على ما يلزم لتنكُّرى ، حتى أننى اضطررت لاستخدام بعض زجاجات الفودكا ، والموقد ، وكل ماهو مصنوع من البلاستيك فى حجرتك و ....

ثم بتر عبارته ، وابتسم وهو يتابع فى تهكُّم :

ـ سيفهم رجال الـ (كى . جى . بى)[*] . بسرعة أيها الرفيق الجنرال .. فهكذا نعمل جميعًا ، حينما نفتقر إلى أدوات التنكُّر التقليدية .

عاد الجنرال (بودسكى) يحاول عبثًا التخلُّص من قيوده ، على حين أردف (أدهم) فى هدوء :

(*) الـ (كى . جى . بى) : المخابرات السوفيتية .

— والآن .. وداعًا أيها الرفيق الجنرال .. فلا أظن أننا سنلتقى مرَّة أخرى ، فإما أن أنجح فى اجتياز قضبانكم الجليدية ، أو أنتقل إلى عالم بلا قضبان .

بدا هادئًا ، على عكس ما تحمله كلماته من معان ، ثم أردف وهو يستدير إلى باب الحجرة :

— وداعًا يا جنرال .

وفى هدوء وثقة ، فتح (أدهم) باب حجرة الجنرال (بودسكى) ، الذى سمع صوت أقدام جنديَّى الحراسة ، وهى ترتطم بالأرض احترامًا ، قبل أن يغلق (أدهم) باب الحجرة خلفه .

* * *

انتصب جنديا الحراسة فى احترام ، فور رؤيتهما (أدهم) فى ثوب قائدهما ، وقال أحدهما فى اهتمام :

— هل نصحبك أيها الرفيق الجنرال ؟

أجابه (أدهم) ، مقلدًا صوت الجنرال ، فى براعة منقطعة النظير :

— لا سأقوم بجولة فى المعسكر فحسب .

ثم ابتعد فى خطوات سريعة عن الحارسين ، اللذين تبادلا

نظرات الدهشة ، إزاء هذا التصرُّف غير المفهوم ، الذى أقدم عليه الجنرال لأول مرَّة .. أمَّا (أدهم) ، فقد هبط إلى أرض المعسكر ، وهو يخفى وجهه بياقتى معطفه ، كما لو كان يتَّقى البرد ، ويسدل قبعته الرسمية على نصف وجهه العلوى .. واتجه من فوره إلى حجرات المعتقلين ، ولم يكد جنود الحراسة الأربعة يلمحون الجسد البدين ، والأوسمة التى تغطى صدر الحُلَّة الرسمية ، حتى ضربت أقدامهم الأرض فى قوة ، وارتفعت أسلحتهم إلى صدورهم ، عدا أحدهم ، الذى صوَّب سلاحه إلى صاحب الجسد البدين ، وصاح بما تقتضيه الأوامر :

— كلمة سِرِّ الليل ؟!

واصل (أدهم) تقدُّمه ، وهو يقول فى ثقة وصرامة ، مقلدًا صوت الجنرال (بودسكى) :

— (جليد) .. أفسحوا الطريق .

ولكن أحدًا من الجنود الأربعة لم يتحرَّك قِيد أُنملة ، بل توتَّرت أصابعهم فوق مقابض أسلحتهم ، وانعقدت حواجبهم ، وهم يحدِّقون فى وجه (أدهم) ، ثم تحرَّكت أيديهم بسرعة ، لتتوجَّه فوَّهات مدافعهم الرشَّاشة إليه ، وهتف أحدهم :

— خطأ .. أنت لست الرفيق الجنرال (بوديسكى) .

* * *

فى اللحظة التى تبدَّلت فيها ملامح الجنود الأربعة ، أدرك (أدهم) أن الجنرال (بودسكى) قد خدعه .. ومع آخر حروف كلمات الجندى الأخير ، استعاد (أدهم) قدرته على القتال الخاطف ..

وفجأة .. انقض على الجنود الأربعة كالصاعقة ..

سقط الجندى الأول محطَّم الفكّ ، وهوَى الثانى بأنف مهشَّم ، فى حين فقد الثالث وعيه إثر لكمة صاعقة ، وتحاشى الرابع ركلة من قدم (أدهم) ، ولكنه لم ينجح فى الإفلات من لكمة أصابت فكّه بسرعة البرق ، فلحق بزملائه الثلاثة .

تحرَّك (أدهم) فى سرعة وخفَّة ، فنقل الجنود الأربعة إلى ركن مظلم ، ثم التقط مدفع أحدهم الرشاش ، وساعده اتساع سترة الجنرال ، على إخفاء المدفع الرشاش فى طيّات ثيابه ، ثم أسرع يهبط إلى حيث زنزانات المعتقلين ..

كان هناك ثلاثة جنود يحرسون الممّر ، الذى انتشرت فيه الزنزانات ، ولقد هبُّوا جميعًا فى احترام ، حينما وقع بصرهم عليه ، وعقد هو كفَّيه خلف ظهره ، واقترب من أحدهم ، وقال فى صرامة ، وكأنه يختبره :

ـــ كلمة سِرّ الليل .

ـــ (ثلوج) أيها الرفيق الجنرال .

مطَّ (أدهم) شفتيه ، وتظاهر بالغضب وهو يقول :

ـــ ليس من المفروض أن تخبرنى بها أيها الرفيق الجندى ، بل من المفروض أن تسألنى أنت عنها .

شحب وجه الجندى ، وهو يغمغم فى خوف :

ـــ هذا صحيح أيها الرفيق الجنرال .. لقد أخطأت ..

هتف (أدهم) فى سخط مفتعل :

ـــ أخطأت ؟!.. لقد ارتكبت جريمة أيها الرفيق الجندى .

امتقعت وجوه الجنود الثلاثة ، وهم يتوقَّعون عقابًا صارمًا ، ولكن (أدهم) نصب قامته ، وقال فى صرامة :

ـــ أحضروا لى المعتقل (أندريه جريج) من الزنزانة رقم تسعين .

أسرع الجنود يحضرون (أندريه) ، الذى اتسعت عيناه ذهولًا ، حينما تعرَّف (أدهم) ، فى حُلَّة الجنرال (بودسكى) ، ولكنه لاذ بالصمت ، ووقف إلى جواره منكّس الرأس ، على حين قال (أدهم) :

ـــ سأصحبه معى .

أجاب أحد الجنود ، وهو يشكر مَقْدِم (أندريه) ، الذى أنسى الجنرال خطأه :

— كما تشاء أيها الرفيق الجنرال .

تحرّك (أدهم) فى غطرسة إلى الخارج ، وهو يقول :

— اتبعنى أيها المعتقل .

تبعه (أندريه) فى حذر .. ولم يكد يشعر بابتعاده عن الحرّاس الثلاثة ، حتى همس فى توتّر :

— كيف أمكنك ....؟

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

— الزم الصمت .

ثم أردف فى برود :

— ستجد أربعة جنود فاقدى الوعى فى الخارج ، انتق ثوب أقربهم حجمًا لك ، وارتده ، فسنغادر هذا المكان الكئيب على الفور

* * *

تحرّكت بقع الضوء الكاشفة فى أرجاء معسكر الاعتقال ، على نسق ثابت ، وتركّزت إحداها فوق (أدهم) ، (وأندريه) الذى يتبعه فى خطوات مرتبكة ، مرتديًا زىّ أحد الجنود السوفيت ، ثم تبعتهما البقعة الضوئية ، وهما يتحرّكان نحو بوّابة المعسكر ، وكأن الجندى المكلّف بها يحاول التأكد من شخصية

الجنرال وتابعه ، أو كأن الدهشة تساوره ، بسبب خروج قائد المعسكر فى مثل هذا الوقت من الليل ، حتى أن (أندريه) غمغم فى توتّر وحنق :

— يبدو أنهم قد كشفوا أمرنا .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— صَهْ أيها الغبىّ .. إنه نوع من الاحترام للقائد .. إنهم يضيئون له الطريق .

غمغم (أندريه) فى حنق :

— ومن يدريك ؟.. ربما كانوا يضيئون الهدف ، قبل أن يطلقوا عليه النار .

قال (أدهم) فى صرامة :

— الزم الصمت أيها الوغد .

أطبق (أندريه) شفتيه ، وأخذ يهمهم بكلمات ساخطة ، على حين تقدّم (أدهم) من حارسىّ بوابة المعسكر ، اللذين هتفا فى آن واحد :

— قِفْ .. كلمة سِرّ الليل .

أطلق (أدهم) من بين شفتيه زمجرة غاضبة ، مقلّدًا أسلوب الجنرال (بودسكى) ، وقال فى لهجة بدت للجنديين ساخطة :

ـ (ثلوج) أيها الغبيّان .. ألا تعرفان قائدكما ؟

انتصب الجنديان فى احترام ، وإن لم تخف ملامحهما دهشتهما من رغبة قائدهما فى الخروج فى مثل هذا الوقت من الليل ، وأشاح (أدهم) عنهما بوجهه ، وهو يقول فى زمجرة ساخطة :

ـ أين سائق السيارة اللّعين ؟

أسرع أحد الجنديين يستدعى السائق ، الذى جاء مهرولًا ، مقاومًا نُعَاسَه ، وهو يتساءل بدوره عن سرِّ رغبة القائد فى الخروج .. ولكنه أدار محرِّك السيارة ، وأخذ يتثاءب داخلها وهو ينتظر سخونة المحرِّك ، دون أن يدرى أن درجة حرارة (أندريه جريج) ، قد اقتربت من درجة الاشتعال ، وأنه تحت أول ضغط مباشر سينهار ، أو يسقط كل شىء كالجليد الهش .

* * *



٥ ـ وبدأت المطاردة ..

وقف حارسا حجرة القائد يتناقشان ، حول الأسباب التى دعت قائدهم لمغادرة حجرته ، لأول مرَّة ، بعد منتصف الليل .. وفجأة .. بتر أحدهما عبارة هامسة ، وعقد حاجبيه وهو يقول فى قلق :

ـ استمع أيها الرفيق .. هناك جلبة ما تصدر من حجرة القائد .

أنصت رفيقه فى اهتمام ، ثم غمغم فى توتُّر :

ـ هذا صحيح .. ولكن من يجرؤ على ....

قاطعه زميله بإشارة من يده ، وهمس فى انفعال :

ـ فلنؤجل السؤال لما بعد أيها الرفيق ، أما الآن فدعنا نفاجئ هذا المقتحم .

دفع الجنديان باب حجرة القائد ، واندفعا إلى الداخل ، شاهرين سلاحيهما ، ولكن أقدامهما تصلَّبت فى ذهول ، حينما رأيا قائدهما ، الذى رأياه يغادرهما منذ لحظات ، مقيدًا مكمَّمًا فوق فراشه ، يقاوم وثاقه فى شراسة ..

لم يدم ذهول الجنديَّين أكثر من دقيقة ، اندفعا بعدها يحلّان وثاق قائدهما ، الذى صرخ فى غضب :

ـــ أطلقا الإنذار .. أطلقاه فورًا ، قبل أن يفرّ ذلك المعتقل الشيطان :

وانطلقت صفّارات الإنذار ..

انطلقت قبل أن يركب (أدهم) و (أندريه) سيارة الجنرال (بودسكى) بلحظة واحدة .

* * *

تقول ملفّات المخابرات العامة المصرية عن (أدهم صبرى) ، إنه يحمل بين ضلوعه قلبًا لا تختلّ نبضاته أبدًا ، ولا يرتجف أمام أشد المفاجآت هَوْلًا ..

ولقد كان هذا هو انفعال (أدهم صبرى) حقًّا ، حينما ارتفع فجأة صوت صفارات الإنذار ..

لم يكد الصوت يدوِّى فى أرجاء المعسكر ، حتى ارتجفت ساقا (أندريه) ، وتهاوَى قلبه بين ضلوعه .. ، وعلى العكس تمامًا ، تحرَّك (أدهم) فى سرعة مذهلة ، فأطاح بمدفعى حارسى البوَّابة ، بركلتين فى آن واحد ، ثم هوَى على فكّيهما بقبضتيه ، فأزاحهما من طريقه ، واندفع إلى السيارة ، فانتزع سائقها

المذهول من خلف عجلة القيادة ، وألقى به بعيدًا وهو يقول فى سخرية :

ـــ أنت مفصول أيها الرفيق السائق .

وفى حركة سريعة قوية ، ألقى (أندريه) على المقعد المجاور لمقعد القيادة ، وقفز خلف عجلة القيادة ، وانطلق بالسيارة فى سرعة مذهلة ، مخلّفًا عددًا من رصاصات مدافع الحراسة ، أذابت الجليد ، حيث كانت تقف السيارة ..

صرخ (أندريه) فى رعب ، وهو يحاول اختراق ظلمة الليل ببصره ، داخل السيارة التى انطلقت تشق الثلوج كالصاروخ :

ـــ احترس أيها المجنون .. ستنزلق السيارة فوق الثلج ، بهذه السرعة المذهلة التى تنطلق بها .

لم يجبه (أدهم) بكلمة واحدة ، فقد كان انتباهه كله مركّزًا على الطريق الضيّق ، الذى تبدو معالمه فى صعوبة وسط الظلام ، على الرغم من ضوء السيارة المبهر ، وعاد (أندريه) يصرخ .

ـــ إنك ستقتلنا بهذا الجنون .

أجابه (أدهم) فى برود :

ـــ لو أننا سرنا بسرعة معقولة ، للَحق بنا السوفيت ، وفى هذه الحالة سيصبح الموت أمرًا حتميًّا .

أراد (أندريه) أن يعترض ، ولكن صوت السيارات المطاردة صكَّ مسامعه ، وأعاد إلى ذهنه عذاب الأشهر السابقة فى معتقل (سيبيريا) ، فتلاشى اعتراضه ، وصرخ فى توتُّر :

ـــ انطلق بحقِّ الشيطان .. ابتعد عن هنا بأقصى سرعة ممكنة.

ولكن (أدهم) كان ينطلق حقًّا بأقصى سرعة ، يمكن أن يمنحها محرِّك السيارة ..

ولقد أثبت السوفيت أنهم لا يقلُّون جرأة ، أو مهارة عن (أدهم) ، فقد كانت سياراتهم المطارِدة تنطلق بسرعة مذهلة ، وبجسارة رائعة ، حتى تملَّك الرُّعب من (أندريه) ، فانهار فى مقعده ، وغمغم فى رعب :

ـــ سيلحقون بنا .. لافائدة .. لا فائدة .

* * *

انطلقت حملة المطاردة خلف سيارة (أدهم) فى إصرار ، يتزعَّمها الجنرال (بودسكى) ، الذى يتميَّز غضبًا ، وحَنَقًا ، وعنادًا ..

كان حماسه يدفع الجنود للانطلاق بسياراتهم كالمجانين ، على حين أخذ هو يزفر فى غيظ ، حتى سأله ضابط أركان حربه :

ـــ إنه ينطلق بسرعة إضافية مذهلة يا سيِّدى الرفيق الجنرال ، وهو يسبقنا بربع ساعة ، ولا أعتقد أننا سننجح فى اللّحاق به .

قال (بودسكى) فى حَنَق :

ـــ سيسقط بين أيدينا يا صديقى .. إنه لا يحمل فى سيارته وقودًا إضافيًّا ، بعكسنا ، ثم إن ضوء النهار سيشرق بعد ساعة واحدة ، وعندئذ لن يجد مكانًا يختبئ فيه .

صمت الضابط لحظة ، ثم قال فى تردُّد :

ـــ هل أبلغ السلطات لاسلكيًّا ؟

عقد (بودسكى) حاجبيه ، وهو يتطلَّع إلى بقعة الضوء التى تتحرَّك من بعيد ، مع انطلاق سيارة (أدهم) ، وساد الصمت لحظة ، ثم غمغم :

ـــ يبدو أننا سنضطر إلى ذلك يا (ميخائيلوف) ، فنحن نحتاج إلى بعض طائرات المطاردة .

غمغم (ميخائيلوف) فى دهشة :

ـــ طائرات مطاردة ؟!

أومأ (بودسكى) برأسه إيجابًا ، وابتسم ابتسامة شرسة ، وهو يقول :

ـ نعم أيها الرفيق .. فما أن يسطع ضوء النهار ، حتى يبدو هذا الشيطان كنقطة سوداء ، تنطلق فوق سطح ناصع البياض ..

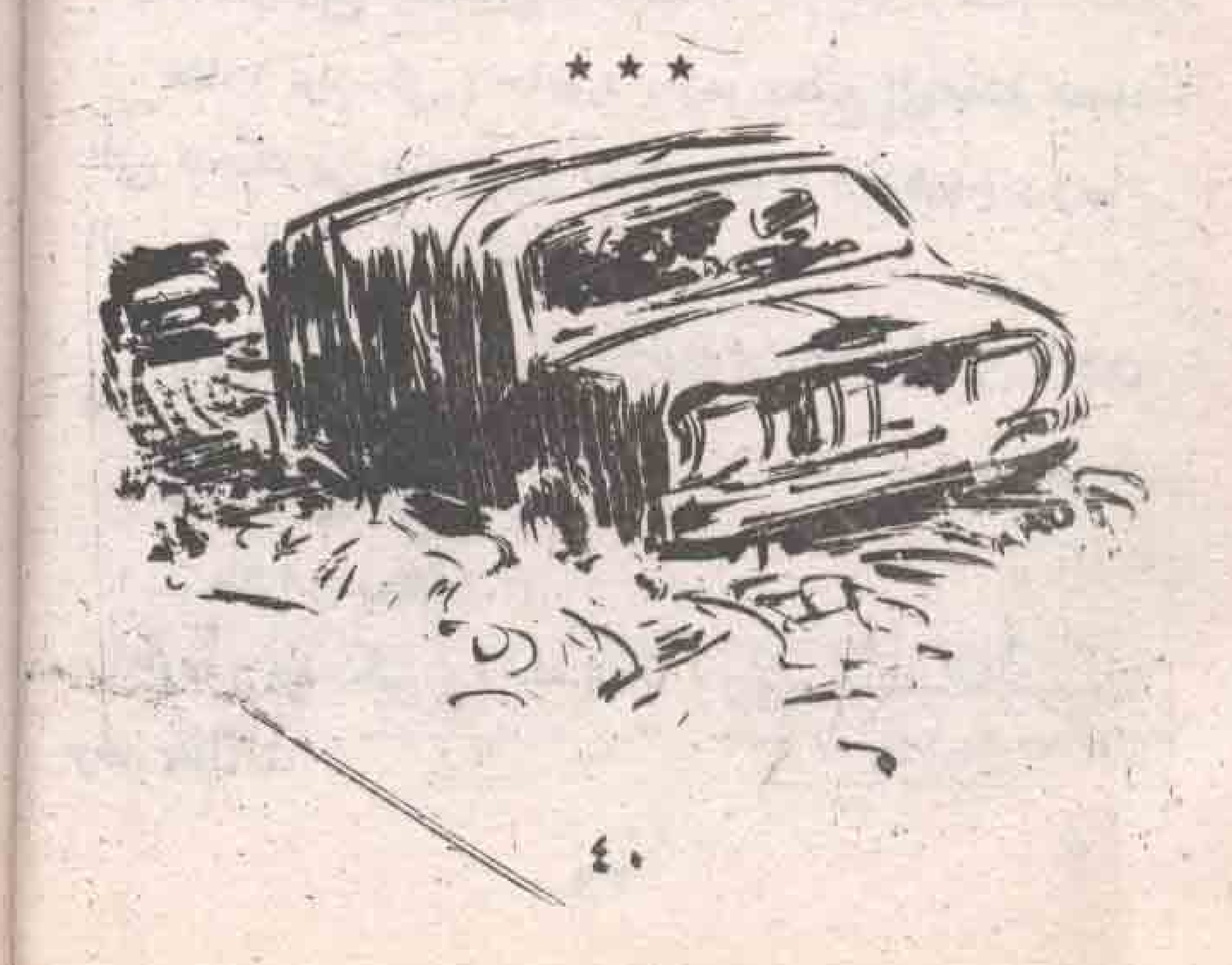
وانطلقت من بين شفتيه ضحكة عصبيَّة ، ثم أردف :

ـ وهنا ستكون إصابته بالنسبة لطائراتنا ، كإصابة فيل بمدفع بازوكا ، على بعد قدم واحد أيها الرفيق ..

عاد يطلق ضحكته العصبيَّة ، قبل أن يستطرد :

ـ وسترى .

* * *



٦ ـ النسور والصقر ..

قفز الرفيق (ياكوف) من فراشه ، وصرخ فى ذهول :

ـ هرب ؟!.. يا لكم من حمقى !! سأضعكم جميعًا فى موضعه ، بل سألقى بكم فى أعماق الجحيم نفسها .

ثم ألقى سمَّاعة الهاتف فى غضب هادر ، واندفع يرتدى ثيابه الرسمية ، على حين هتفت به زوجته فى قلق :

ـ ماذا حدث يا (ياكوف) ؟.. ماذا حدث ؟

زمجر وهو يغمغم فى خشونة :

ـ ليس هذا من شأنك .

ثم اندفع مغادرًا منزله ، وانطلق بسيارته التى تحمل شعار رجال السلطة إلى مكتبه ، وبعد لحظات لحق به (إيفانوف) ، الذى بادره فى انفعال :

ـ هل صحيح أن ضابط المخابرات المصرى فرَّ من معتقل (سيبريا) ؟

هتف (ياكوف) فى حنق .

ـ نعم .. ولقد أصدرت أوامرى بمطاردته بالطائرات ، واعتقاله على الفور .

صاح (إيفانوف) :

ـ دَعْهم ينسفونه بصواريخهم أيها الرفيق الجنرال .

كان وجه (ياكوف) محتقنًا من شدة الغضب ، وهو يهزّ رأسه فى عناد شديد ، ويقول :

ـ كلَّا أيها الرفيق ، إننى أريده حيًّا ، حتى أسومه العذاب ألوانًا ، هل سمعت .. إننى أريده حيًّا .

* * *

أضاء مصباح الوقود الصغير فى سيارة (أدهم) ، معلنًا قرب نفاد الوقود ، وارتجف جسد (أندريه) ، وهو يتطلَّع إلى الضوء ، الذى بدأ ينتشر فى المنطقة ، وقال :

ـ لقد أشرقت الشمس ، ونحن لم نعبر ربع (سيبيريا) بعد .

غمغم (أدهم) فى سخرية :

ـ الشمس ؟!

صاح (أندريه) فى حنق :

ـ أعنى الضوء ، وسيجعلنا هذا مكشوفين تمامًا ، وربَّما لحق بنا السوفيت .

ألقى (أدهم) نظرة سريعة على خزَّان الوقود ، ثم عاد يُولِى اهتمامه إلى الطريق ، وهو يقول فى سخرية قاسية :

ـ يمكنك محو كلمة (ربما) أيها الوغد ، فقد انتهى وقودنا تمامًا .

اتسعت عينا (أندريه) فى رعب ، وهو يقول :

ـ انتهى الوقود ؟!

لم يكد يتم عبارته حتى توقَّف صوت محرِّك السيارة تمامًا ، وبدأت تنزلق بفعل القصور الذاتى ، حتى توقَّفت تمامًا ، فانتزع (أدهم) المدفع الرشَّاش ، وقفز منها وهو يقول :

ـ هيَّا أيها الوغد .. سنكمل رحلتنا عَدْوًا .

تطلَّع (أندريه) فى ذهول إلى صحراء الثلج الممتدَّة أمامه ، ثم صرخ فى رعب :

ـ عَدْوًا ؟!.. إن أمامنـــا ما يقـــرب من عشرة آلاف كيلومتر ، حتى نصل إلى (موسكو) !!

تحرَّك (أدهم) دون أن يلتفت إليه ، وهو يقول :

ـ ابدأ العدْوَ إذن أيها الوغد ، فمشوار الألف ميل يبدأ دائمًا بخطوة .

هتف (أندريه) فى جنون ، وهو يشير إلى اتجاه السيارة المطارِدة :

ـ سيلحقون بنا .

لم يكد يتم هذه العبارة ، حتى أشار إليه (أدهم) أن يصمت ، وعقد حاجبيه فى تركيز ، وحينما حاول (أندريه) تقليده ، تسلل إلى مسامعه صوت هدير يتصاعد فى بطء ، ثم أخذت سرعة تصاعده ترتفع ، حتى تحوَّل إلى ضجيج مرتفع ، وهنا هتف (أدهم) :

ـ يا إلهى !! النُسور !!

صرخ (أندريه) فى رعب :

ـ النسور ؟!.. ماذا تعنى ؟

جاء الجواب هذه المرَّة على هيئة ثلاث طائرات مقاتلة سوفيتية ، عَبَرت السماء فجأة ، فوق رأس الرجلين تمامًا .

* * *

تسمَّرت قدما (أندريه) وسط الثلوج ، واتسعت عيناه عن آخرهما فى رعب ، وقد تركَّزتا على الطائرات الثلاث ، التى دارت حول نفسها ، وعادت تنقضّ عليهما ، كنسور تنقضّ على فرخين صغيرين ..

وفجأة .. انطلقت مدافع الطائرات الثلاث ، وانهمرت رصاصاتها حول الرجلين ، قبل أن تعود الطائرات الثلاث إلى الارتفاع مبتعدةً ..

كان (أندريه) قد انهار تمامًا ، عندما سمع (أدهم) يغمغم فى اهتمام :

ـ يا إلهى !! ربما !!

رفع إليه عينيه ، وهتف فى لهفة :

ـ ربَّما ماذا ؟

لم ينطق (أدهم) بكلمة واحدة ، ولكنه رفع فوَّهة مدفعه الرشاش نحو الطائرات ، التى عادت تنقض من جديد ، وقبل أن تمطرهما مرَّة أخرى برصاصاتها ، انطلق مدفع (أدهم) الرشاش ، وشاهدت عينا (أندريه) المذهولتان إحدى الطائرات الثلاث ، وهى تنفصل عن رفيقتيها ، وتبتعد فى سرعة ، وقد تبعها خيط من الدُخانِ الأسود الكثيف ، على حين ابتعدت الطائرتان الأخريان ، دون أن تطلقا رصاصة واحدة ، فصرخ فى ذهول :

ـ يا للشيطان !!.. لقد أصبتها .

غمغم (أدهم) فى سخرية :

ـ فى الخزَّان تمامًا أيها الوغد .

عاد (أندريه) يصرخ فى رعب :

ـ الطائرتان الأخريان تعودان ، ستنتقمان منَّا ولا شك .

جاءت رصاصات الطائرتين هذه المرَّة أكثر قُربًا من الرجلين ، واختلط صوتها بصوت رصاصات مدفع (أدهم) الرشَّاش ، وانفصلت طائرة ثانية ، لتهوِى مشتعلة بين الثلوج ، وعاد (أندريه) يهتف فى ذهول :

ـ يا للشيطان !!

دارت الطائرة الثالثة دورة رأسية عالية ، ثم عادت تنقض على الرجلين فى شراسة ، وكأن قائدها قد قرَّر مخالفة الأوامر الصادرة إليه ، وإطلاق النار على الرجلين مباشرةً ، ولو أننا انتقلنا إلى كابينة الطيَّار ، لوجدناه يهتف فى غضب :

ـ أرنى ما يمكنك أن تفعله الآن أيها الشيطان .

ثم ضغط زِرّ الإطلاق فى عصا القيادة ، وهو يصوِّب مدفعه الرشَّاش إلى صدر (أدهم) تمامًا .

* * *



٧ ـ رجل لكل العصور ..

لحظة واحدة تفصل الحياة عن الموت ...

جزء من الثانية يتعلَّق به خيط الحياة ، ويتدلَّى منه حبل الموت ..

وفى هذا الجزء من الثانية ، تحرَّك (أدهم صبرى) ..

بحكم خبرته السابقة فى قيادة الطائرات المقاتلة ، كان يعرف جيدًا ذلك الجزء من الثانية ، الذى يطلق فيه الطيَّار النار ، قبل أن يعاود الارتفاع بطائرته ..

وفى اللحظة المناسبة تمامًا .. وبدقَّة متناهية ، تكاد تنافس أجهزة الكمبيوتر ، قفز (أدهم) إلى الأمام ، وتفادى الطلقات النارية ، التى انهمرت حيث كان يقف ، ثم مال جانبًا ، وأطلق رصاصات مدفعه الرشَّاش على خزَّان الطائرة الثالثة والأخيرة ..

وهوَت الطائرة ..

رجل واحد أسقط ثلاث طائرات مقاتلة ، بمدفع رشَّاش واحد ..

رجل واحد حطّم ثلاثة من نسور الجوّ السوفيت ..
وكان الرجل مصريًّا خالصًا ..
كان رجلًا لكل العصور ، وبطلًا لكل الأجيال ..
كان (أدهم صبرى) ..
كان (رجل المستحيل) ..

* * *

شحب وجه (ياكوف) ، وهو يستمع إلى محدّثه عبْر سمّاعة الهاتف ، ثم وضع السمّاعة فى بطء ، وتراخى فوق مقعده ، وأشعل سيجارة ، ملأت رائحتها الحجرة بسرعة ، وسأله (إيفانوف) ، وهو يعقد حاجبيه فى قلق :

ــ ماذا حدث ؟

ظلّ (ياكوف) يحدّق فى وجهه برهة فى شرود ، ثم غمغم فى صوت رجل مذهول :

ــ لقد أسقط ثلاث طائرات مقاتلة .

اعتدل (إيفانوف) فى مقعده بحركة حادّة ، وسأل فى ذهول :

ــ من هو الذى حطّمها ؟

بدا (ياكوف) وكأنه يهمّ بالبكاء ، وهو يقول :

ــ ذلك الشيطان المصرى .

قفز (إيفانوف) من مقعده ، هاتفًا :

ــ من ؟!! ..

ثم عاد ينهار على مقعده ثانيةً ، ويهتف غير مصدّق :

ــ هل استخدم صواريخ دفاعية ؟ أو ....

هزّ (ياكوف) رأسه نفيًا فى بطء ، وأجاب :

ــ بمدفع رشّاش واحد .

اتسعت عينا (إيفانوف) عن آخرهما ، وتدلّت فكّه السفلى فى ذهول ، وهو يغمغم :

ــ هذا مستحيل !! مستحيل !!

وفجأة .. ضرب (ياكوف) سطح مكتبه فى قوة ، وصاح :

ــ سنواجهه بكل قوانا .. إن (روسيا) التى هزمت (نابليون) و (هتلر) ، لن تعجز عن قنص رجل مخابرات مصرى واحد ، فى أعماق (سيبيريا) .

ثم التقط سمّاعة الهاتف ، وطلب رقمًا فى انفعال .. ولم يكد يسمع صوت محدّثه ، حتى قال فى صرامة تختلط بغضبه :

ــ أرسل خمس مقاتلات ، لمطاردة هذا الشيطان المصرى ،

ومُرْهُم بقذفه بالصواريخ فور رؤيته ، وأطلق خلفه عشر دبابات ، واجعل هدف الجميع هو تدميره .. تدميره دون سابق إنذار .

* * *

وقف (أندريه) دقيقة كاملة ، يحدّق فى وجه (أدهم) بذهول شديد ، ثم غمغم فى صوت يشفّ عن دهشته البالغة :

ـ لقد أسقطّها !!.. لقد فعلت بحقّ الشيطان !

فحص (أدهم) مدفعه الرشّاش فى سرعة ، ومهارة ، ثم أجاب فى هدوء :

ـ سيرسلون عشرات غيرها ، وسيلحق بنا فريق المطاردة بعد دقائق .

عاد (أندريه) يهتف ، وكأنه لم يسمع عبارة (أدهم) :

ـ كان من الممكن أن تلقى مصرعك .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـ لو أنهم يريدون قتلنا لفعلوا من الهجوم الأول يا رجل .. لقد كانوا يريدون إجبارنا على الاستسلام فحسب ، ولقد استغللت أنا ذلك جيِّدًا .

تلفَّت (أندريه) حوله فى توتُّر ، ثم صاح فى خوف :

ـ أين نذهب الآن ؟.. لا يوجد مكان واحد يمكننا أن نختفى فيه .

بدت ابتسامة (أدهم) عجيبة فى عينى (أندريه) ، وأدهشه أن أزاح (أدهم) طرف معطفه السميك ، وانتزع من تحت سترته وسادات حجرة (بودسكى) ، التى استغلَّها ليمنح جسده هذا الحجم الزائد ، وقال وهو يمزِّق أغطيتها البيضاء :

ـ هذا ما قد يبدو لك أيها الوغد .

صاح (أندريه) فى قلق :

ـ ماذا ستفعل ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء غامض ، وغمغم :

ـ سترى أيها الوغد .. سترى .

* * *

توقَّفت حملة المطاردة ، التى يقودها الجنرال (بودسكى) ، إلى جوار سيارة (أدهم) المعطَّلة ، وعقد الجنرال حاجبيه ، وهو يمسح المنطقة ببصره ، ثم قال فى حنق :

ـ أين ذهب هذا الشيطان ؟.. إنه يبدو كما لو كان قد ذاب وسط الجليد .

تطلَّع (ميخائيلوف) إلى المنطقة الخالية بدوره ، ثم غمغم فى حَيْرة :

— لاشك أنه ورفيقه لم يبتعدا كثيرًا ، فالأرض فى هذه المنطقة منبسطة ، ولو أنهما ....

بتر عبارته فجأة ، لما شعر فيها من تناقض ، وهزَّ كتفيه وهو يقول فى حَيْرة :

— لست أدرى أين ذهبا ...

ضرب (بودسكى) مقعده بقبضته ، وصاح فى غضب :

— لن يمكنهما الفرار ، إننا ثلاث سيارات ، ولدينا اثنا عشر جنديًا ، سنحيط المنطقة كلها و ....

وفجأة .. بتر عبارته ، حينما انبعث من خلف السيارات الثلاث صوت ساخر ، يقول فى لغة روسية سليمة ، وبلهجة متهكِّمة ، عابثة :

— لن تحتاج إلى كل هذا أيها الرفيق الجنرال ، ها نحن أولاء ..

* * *



٨ — شيطان الثلوج ..

استدار (بودسكى) ، و (ميخائيلوف) ، والاثنا عشر جنديًا فى آن واحد ، وفى ذهول شديد إلى مصدر الصوت ، فاصدمت عيونهم ببريق قوى ينبعث من عينى (أدهم صبرى) ، وهو يصوِّب إليهم فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، وقد أخفى ملابسه كلها ، وملابس (أندريه) ، الذى وقف إلى جواره يرتجف ، بأغطية الوسادات البيضاء ..

كان (بودسكى) هو أول من تجاوز أسوار الذهول ، وهتف :

— كنت تختفى وسط الثلوج إذن ؟!

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

— كان ينبغى أن تدركوا ذلك منذ اللحظة الأولى ، فهذه خدعة سوفيتية محضة . ولقد استخدمها رجال المقاومة السوفيتية ، لإخفاء تسلُّلهم إلى معسكرات الألمان ، فى الحرب العالمية الثانية (*) . فالثلوج تخفى أى جسم أبيض وسطها .

(*) حقيقة واقعية .

هتف (ميخائيلوف) فى غضب :

ــ هل تظن أنك ستهزمنا كلّنا بمدفع رشّاش واحد ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ لقد فعلت بالفعل أيها الرفيق .

ازداد غضب (ميخائيلوف) ، وهو يقول :

ــ هذا ما تظنه ، إن جنودنا بواسل أيها الشيطان .

ثم استدار إلى رجاله ، وصاح بلهجة آمرة :

ــ أشهروا مدافعكم فى وجهه أيها الرفاق .

ارتفعت فوّهات المدافع الاثنى عشر فى وجه (أدهم صبرى) بحركة آلية ، وارتفع فى المنطقة صوت سيل من الطلقات النارية .

* * *

حينما يقرّر رام محترف إطلاق النار ، فوضع هذا القرار موضع التنفيذ يحتاج منه إلى ثلاثة أعشار من الثانية ..

فى العُشر الأول يصوّب سلاحه إلى الهدف ، وفى العُشر الثانى يثبّت السلاح ، وفى العُشر الثالث يطلق النار ..

هذا ما يحتاج إليه بالضبط رامٍ محترف ، لا مجال للتردُّد فى عمله ..

وبالنسبة إلى رجل مثل (أدهم صبرى) ، لم يكن الاحتراف وحده هو كل قدراته ، وإنما كانت هناك موهبته الخرافية ، فى سرعتى المبادرة والاستجابة ..

ولقد اختصرت هذه الموهبة ثلثى الوقت ..

وفى عُشْر الثانية فقط ، انطلقت رصاصات (أدهم) نحو أهدافها ، وسبق خصومه بعُشْرَيْن من الثانية ..

ولم يكد يتلاشى صوت الرصاصات ، حتى كان الذهول قد أحاط بالجميع ، ما عدا (أدهم) ..

لقد أصابت رصاصاته المدافع الرشّاشة من أيدى الجنود ، دون أن يصاب أى منهم بأدنى أذى .. وكان الأمر يشبه المعجزة ..

لقد تلاشى غضب (ميخائيلوف) دفعة واحدة ، ولقد أقسم فى تقريره ــ فيما بعد ــ أنه لن ينسى هذا المشهد ما بقى من العمر ، ولا عبارة (أدهم) وهو يقول فى هدوء ، محطّمًا حالتى الصمت والذهول :

ــ والآن .. هل توافق على الاستسلام أيها الرفيق ؟

رفع الجنود الاثنا عشر أيديهم إلى أعلى فى استسلام ، دون أن تخطر لأحدهم فكرة المقاومة ، بعد هذا المشهد المذهل ، الذى

رأته عيونهم ، وتبعهم (بودسكى) ، و (ميخائيلوف) ، الذى قال فى ذهول :

— إنك لم تترك لنا الخيار أيها الشيطان المصرى .

قال الجنرال (بودسكى) فى لهجة عصبيّة :

— ماذا ستفعل بنا ؟

ابتسم (أدهم) ابتسامة غامضة ، وقال :

— سيدهشك ما سأفعله أيها الرفيق الجنرال .

* * *

انطلقت سبع طائرات مقاتلة ، تبحث عن (أدهم) و (أندريه) ، فوق ثلوج (سيبيريا) ، ولم يطل بحثها ، حتى رأى طيارو المقاتلات قافلة البحث ، وعلى متن إحدى سياراتها الثلاث رجلان ، صوّبت إلى رأسيهما المدافع الرشّاشة ، فأسرع قائد الطائرات السبع يهتف ، عَبْر جهاز اللاسلكى المتصل بخوذته :

— هل ألقيتم القبض عليهما ؟

جاءته الإجابة من فريق البحث :

— لقد فعلنا أيها الرفيق الطيّار .. ونحتاج إلى هليوكوبتر ، لنقلهما إلى الرئاسة فى (موسكو) .

تنهّد الطيّار فى ارتياح ، وقال وهو يقفل راجعًا إلى قاعدته الجويّة :

— ستصلكم الهليوكوبتر بعد دقائق .. لا تبرحوا مكانكم .

ابتعدت الطائرات السبع المقاتلة فى سرعة ، وتابعهم الجنرال (بودسكى) بعينيه فى سخط ، ثم غمغم فى حنق :

— هل تظن أن المطاردة ستنتهى ، بسبب خدعتك هذه أيها المصرى ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

— لا بالطبع ، ولكن هذا سيمنحنا وسيلة انتقال جويّة ، وكثيرًا من الوقت الإضافى أيها الرفيق الجنرال .

كان (بودسكى) يجلس هذه المرّة فى السيارة الأخيرة ، وإلى جواره نائبه (ميخائيلوف) ، وخلفهما جلس (أندريه) منكمشًا ، وإلى جواره (أدهم) ، يصوّب مدفعه الرشاش إلى الجميع ، على حين نزع جنديان ثيابهما الرسمية ، وجلسا فى استسلام ، ورفاقهم يصوّبون إليهم أسلحتهم ، التى انتزع (أدهم) ذخيرتها ، والجميع يخشون الوقوع فى أى خطإ ، قد يدفع (أدهم) إلى إطلاق النار عليهم مرة أخرى ..

كانت هذه هى الصورة الخادعة التى رآها طيارو المقاتلات

السوفيتية السبع ، ولقد أحنق هذا الخداع الجنرال (بودسكى) كثيرًا ، حتى أنه عاد يغمغم من بين أسنانه فى غيظ :

ـ إنك لن تنجو .

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ لست أحب أن أستبق الأحداث ، أيها الرفيق الجنرال .

لاذ الجميع بالصمت بعد عبارة (أدهم) ، وطال صمتهم ، حتى ارتفع صوت الهليوكوبتر الحربية وهى تقترب ، ولم تلبث أن لاحت فى الأفق ، واقتربت من السيارات الثلاث فى سرعة ، ثم هبطت على بعد أمتار قليلة منها .. ولم تكد مراوحها تتوقَّف حتى فُتِح بابها الجانبى ، واندفع منه عشرة جنود ، أحاطوا بالسيارات الثلاث ، ومدافعهم الرشَّاشة مُشهَرة فى وجوه الجميع ، وبدا على بابها الرفيق (ياكوف) ، وهو يبتسم ابتسامة الثعالب ، قائلًا فى هدوء :

ـ كانت خدعتك مُتقنة أيها الشيطان المصرى ، ولكنك أخطأت خطأً واحدًا ، وسيكون ثمن هذا الخطإ هو حياتك .

* * *

٩ ـ الثعلب ..

تراجع (أندريه) فى مقعده شاحبًا ، ولوَّح بكفَّيه أمام وجهه ، وهو يصرخ فى رعب :

ـ لقد أجبرنى على ذلك .. لقد أجبرنى على مرافقته .

لم يستمع (أدهم) إلى عبارة (أندريه) المرتعدة ....

كانت عيناه تدرسان الموقف ، وعقله يقلِّب الأمر على كل الوجوه ..

كان من المستحيل ـ حتى بالنسبة إليه ـ أن يتغلَّب عليهم جميعًا ، وهم يتخذون هذه المواضع المختلفة ..

لم تكن جسارته وحدها تكفى للنصر هذه المرَّة ؛ لذا فقد قرَّر (أدهم) أن ينحِّى شجاعة الأُسُود جانبًا ، ويستدعى مكر الثعالب ، ودهاء الذئاب ..

كان على عقله وحده ، أن يسعى للنصر ..

خفض (أدهم) فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، وقال فى هدوء :

ـ حسنًا .. لقد انتصرت هذه المرَّة ، أيها الرفيق (ياكوف) .

اتسعت ابتسامة الظفر على شفتى (ياكوف) ، وأشعل واحدة من سجائره السوفيتية فى تلذُّذ ، على حين هتف (بودسكى) ، بلهفة رجل انزاح عن صدره حمل ثقيل :

ــ أخيرًا .

ثم استدار إلى (أدهم) ، وجذبه من ياقة معطفه ، وقال فى غضب :

ــ ستدفع الثمن غاليًا أيها الشيطان .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ ليس الآن أيها الرفيق الجنرال ، يراودنى شعور بأننى سأرافق الرفيق (ياكوف) إلى (موسكو) .

صرخ (بودسكى) فى غضب :

ــ (موسكو) ؟!.. إنك لن ترى إلا ثلوج (سيبيريا) ، حتى تحين لحظتك الأخيرة .. وصدِّقنى لقد اقتربت كثيرًا .

كان (ياكوف) قد اقترب كثيرًا ، فى أثناء حوارهما ، حتى بات على قيد خطوات قليلة منهما ، فقال فى هدوء ، وهو يحدِج (أدهم) بنظرة متسائلة :

ــ ولماذا تظن أنك سترافقنى أيها الشيطان المصرى ؟

اعتدل (أدهم) فى جلسته ، ومال نحو (ياكوف) ، وقال فى هدوء :

ــ لأننى رجل أعترف بالعبقرية أيها الرفيق (ياكوف) ، وأنت تقف الآن موقف المنتصر ؛ لذا فقد قرَّرت أن أخبرك بكل ما لدىَّ ، عن طبيعة مهمَّتى هنا .

ضاقت عينا (ياكوف) ، وانعقد حاجباه فى حَيْرة ، وهو يحدِج (أدهم) بنظرة متشكِّكة ، ثم قال فى صرامة :

ــ ستخبرنى بكل ما لديك ، عندما نعود إلى معتقل (سيبيريا) .

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال فى صرامة مماثلة :

ــ لن تحصل منِّى على كلمة واحدة ، إذا ما عدت إلى (سيبيريا) أيها الرفيق .. وأنت تعرفنى ، وينبغى أن تعلم أن ما سأخبرك به سيكون مفاجئًا ، وخطيرًا وسيهم رؤساءك كثيرًا ، ولكننى أطالبك بالثمن .

ازداد انعقاد حاجبى (ياكوف) ، وهو يغمغم :

ــ الثمن ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ نعم أيها الرفيق ، والثمن الذى أطلبه هو عودتى ، وهذا

الوغد (أندريه) إلى (موسكو) ، وإيداعنا أى سجن هناك ، بدلًا من هذا المعتقل المميت فى (سيبيريا) .

بدا التفكير على ملامح (ياكوف) ، على حين هتف (بودسكى) فى غضب :

ـ محال .. إنها خدعة أيها الرفيق الجنرال .. هذا الرجل شيطان و ....

قاطعه (ياكوف) فى صرامة :

ـ صَهْ أيها الرفيق (بودسكى) .. ليس من حقك أن تتكلم ، بعد أن ساعد إهمالك فى عملك على فرار الرجلين ، ولأول مرة ، من معتقل (سيبيريا) .. ولاتنس أنك لم تحاسب بعد على هذا .

امتقع وجه (بودسكى) ، ولاذ بالصمت فى غضب ، على حين واجه (ياكوف) (أدهم) ، وقال فى هدوء :

ـ حسنًا أيها المصرى .. ستصحبنى أنت ورفيقك إلى (موسكو) .. ولكننى أحذرك .. فلو لم تكن معلوماتك بالقيمة التى ذكرتها ، فلن تعود إلى (سيبيريا) ، ولكننى سأودعك قبرًا ، لا يمكن للإنسان أن يفرَّ منه أبدًا .

* * *

دارت مراوح الهليوكوبتر ، استعدادًا لارتفاعها عن الأرض ، وجلس (ياكوف) إلى جوار قائدها ، يدخن سيجارته الثالثة ، على حين جلس خلفه (أدهم) و (أندريه) ، وخلفهما الجنود العشرة ، يصوِّبون أسلحتهم إليهما ..

كان (أندريه) يصيح طوال الوقت :

ـ لقد أجبرنى .. أقسم لكم .

على حين جلس (أدهم) صامتًا ، باسم الثغر فى هدوء وسخرية ، ويداه مكبَّلتان خلف ظهره بأغلال حديدية ..

ارتفعت الهليوكوبتر ، وانطلقت نحو (موسكو) ، فى اللحظة التى سأل فيها (أدهم) (ياكوف) فى بساطة :

ـ كيف عرفت أن الأمر مجرد خدعة أيها الرفيق ؟

ابتسم (ياكوف) فى فخر ، وقال :

ـ إنهما خطآن فى الواقع .. لقد أجلست الجنرال (بودسكى) فى السيارة الخلفية ، وهذا لا يحدث أبدًا بالنسبة لقائد سوفيتى ، يتزعم فريقًا للمطاردة .. ثم إنك طلبت هليوكوبتر لنقل المقبوض عليهما إلى الرئاسة فى (موسكو) ، وهذا إجراء عجيب .. فلو أن (بودسكى) ألقى القبض على الفارَّين حقًّا ، لعاد بهما إلى المعتقل أولًا ، ولن يرسلهما إلى

الرئاسة ، حتى يُطلب منه ذلك رسميًا .. لقد كنت فى طريقى إلى هنا ، حينما أخبرنى قائد المقاتلة بذلك ، وفهمت خدعتك على الفور ، فقابلتك بخدعة مماثلة ، وهكذا كان الأمر .

شعر (أندريه) بدهشة بالغة ، عندما ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

ــ أنت ثعلب ماكر يا عزيزى (ياكوف) .

ثم أردف فى هدوء أدهش الجميع :

ــ أخبرنى إذن عندما نصل إلى (موسكو) ، فأنا أحتاج إلى بعض النوم .

قال هذا ، واسترخى فى مقعده بهدوء ، وأغلق عينيه ، وبدا وكأنه قد راح فى نوم عميق .

* * *

مضت ساعة كاملة فى طيران متواصل ، فوق ثلوج لا تنتهى ، و (أندريه) يعجب من استغراق (أدهم) فى مثل هذا النوم العميق ، حتى قال قائد الهليوكوبتر :

ــ لقد اقتربنا من (موسكو) ، وسنصلها بعد عشر دقائق من الآن .

ثم فتح جهاز الإرسال ، وقال :

ــ من (نافلوفا ــ ١٠) إلى القاعدة (موسكو ٣) .. أصل حاملًا الجنرال (ياكوف) ، ومعتقلىْ (سيبيريا) .. أطلب الإذن بالهبوط .

ساد الصمت لحظة ، ثم جاء الجواب عَبْر الجهاز :

ــ من (موسكو ٣) إلى (نافلوفا ــ ١٠) .. تم التصريح لك بالهبوط .. الطريق مفتوح أمامك إلى (موسكو) .

تمتم الطيَّار بكلمة غير مفهومة ، وأغلق جهاز اللاسلكى .. وفجأة .. قفز (أدهم) على الطيَّار وجذبه إليه وهو يقول فى سخرية :

ــ هذا ما كنت أنتظره بالضبط يا صديقى .

* * *



١٠ ـ فى سماء المعركة ..

ارتفعت الهليوكوبتر بغتة ، عندما جذب الطيَّار عصا القيادة على نحو غريزى ، وكأنه يتشبَّث بها ، حينما واجهته مفاجأة (أدهم) ، واختل توازن الجنود العشرة ، فسقطوا فى أرض الطائرة .. وقبل أن ينهض أحدهم ، انطلقت قبضات (أدهم) وركلاته وسطهم كعاصفة هوجاء ، لا تُبقِى ولا تذَر ..

حاول الطيَّار إعادة التوازن للهليوكوبتر ، بعد أن تركه (أدهم) ليواجه الجنود العشرة ..

ونجح فى ذلك بصعوبة بالغة ، تنم عن مهارته العالية فى القيادة .. ولم تكد الطائرة تستقر حتى انتزع (ياكوف) مسدَّسه ، واستدار ليطلق النار على (أدهم) ، ولكن هذا الأخير أطاح بالمسدس فى ركلة ماهرة ، ثم التقطه ، وصوَّبه إلى (ياكوف) وقائد الطائرة ، وقال فى سخرية :

ـ فات الوقت أيها الرفيق ، كان ينبغى أن تبادر إلى ذلك ، فور اختلال توازن الهليوكوبتر .

تطلَّع (ياكوف) فى ذهول ، شاركه فيه (أندريه) ، إلى الجنود العشرة ، الذين سقطوا فاقدى الوعى فى أرض الطائرة ، ثم عاد يرفع عينيه المذهولتَين إلى (أدهم) ، ويغمغم فى صوت مختنق :

ـ كيف ؟.. كيف تخلَّصت من قيودك ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

ـ إننى خبير فى الإفلات من القيود يا عزيزى (ياكوف) .

ثم استدار إلى قائد الطائرة ، وأردف فى صرامة :

ـ اهبط يا صديقى .. سأريحك بعض الوقت من القيادة .

* * *

وقف قائد الطائرة ، و (ياكوف) ، والجنود العشرة فوق الثلوج ، على حافة مدينة (موسكو) يتطلَّعون فى مزيج من الدهشة والحنَق إلى (أدهم) ، الذى ظلَّ يصوِّب إليهم فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، وهو يدير محرِّكات الهليوكوبتر ، وإلى جواره (أندريه) ، الذى يبدو أشد ذهولًا من الجميع ..

بدأت مراوح الهليوكوبتر فى الدوران ، عندما هتف (ياكوف) فى غضب :

ـ ستسقطك المقاتلات السوفيتية .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ هل نسيت أن الهليوكوبتر قد حصلت على إذن بالهبوط ، واختراق أجواء (موسكو) يا عزيزى (ياكوف) ؟.. لقد انتظرت هذه اللحظة بالذات ، قبل أن أبدأ هجومى ، وكان هذا هو هدفى .

قال (ياكوف) فى غيظ :

ـ لن يمكنك الهبوط فى قاعدة (موسكو ٣) .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ من قال إننى سأفعل يا عزيزى (ياكوف) ؟

ثم ارتفع بالطائرة ، وانطلق مبتعدًا فى مهارة رائعة ، حتى أن الطيّار السوفيتى هتف فى إعجاب ، لم ينتبه إليه :

ـ يا للرّوعة !!.. إنه يفوقنى مهارةً .

حدَجه (ياكوف) بنظرة قاسية ، جعلت الدماء تتصاعد إلى وجه الطيّار ، ثم انتزع من جيب معطفه جهازًا صغيرًا ، رفعه إلى فمه ، وضغط أحد أزراره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إنه يظن نفسه عبقريًا ، ولكننى سأمنحه أكبر مفاجأة فى حياته .

ثم ألصق فمه بجانب الجهاز ، وقال فى لهجة آمرة :

ـ هنا الرفيق (ياكوف) .. وقعنا ضحيّة خدعة شيطانية ، واستولى جاسوس مصرى على الهليوكوبتر (نافلوفا ـ ١٠) .. أرسلوا مقاتلاتكم خلفه ، وأسقطوه دون سابق إنذار .

* * *

صاح (أندريه) ، وهو يرقب السماء فى خوف :

ـ إلى أين تنوِى الذهاب ؟.. هل ستعود إلى (موسكو) حقًا ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ بالطبع .

عقد (أندريه) حاجبيه ، وقال فى حنق :

ـ يالك من غبىّ !! إننا نملك طائرة الآن .. أسرع إلى الحدود الفنلندية .. هيًا .. وسنغادر هذه البلاد الحمراء إلى الأبد .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ سنذهب إلى (موسكو) فقط أيها الوغد .

وفجأة .. شعر (أدهم) بفوّهة مدفع رشّاش باردة تلتصق بجانبه ، وسمع صوت (أندريه) يقول فى عصبيّة :

— قلت لك أننا سنذهب إلى الحدود الفنلندية .. ويمكنك اعتبار هذا اختطافًا .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة عالية ، وقال فى تهكُّم لاذع :

— دَعْ عنك حماقتك هذه أيها الوغد .. لو أنك أطلقت النار علىَّ فستهوِى بنا الهليوكوبتر معًا ، ولا أعتقد أنك تفضل مثل هذه الميتة .

قال (أندريه) فى عصبيَّة :

— الموت أفضل من عودتى إلى (موسكو) .

ظهر الضجر على وجه (أدهم) ، وقال فى سأم :

— كُفَّ عن حماقتك هذه أيها الوغد ، والزم الصمت حتى نصل إلى هدفنا .

احتقن وجه (أندريه) ، لهذه اللامبالاة التى يعامله بها (أدهم) ، فصاح فى غضب :

— صدّقنى يا مستر (أدهم) .. سأقتلك

وفجأة .. مال (أدهم) بالهليوكوبتر جانبًا ، بحيث اختلَّ توازن (أندريه) ، وسقط من فوق مقعده ، وأفلت المدفع الرشّاش من كفيه ..

كان (أدهم) يستهدف تلقينه درسًا فحسب ، ولكن ذلك الميل جاء فى موعده تمامًا ..

ففى اللحظة ذاتها ، التى مالت فيها الهليوكوبتر ، عَبَر إلى جوارها تمامًا صاروخ قاتل ، أطلقته طائرة حربية قوية ، وصاح (أدهم) :

— يا إلهى !! لقد كشفوا أمرنا على نحو ، أو آخر .

ثم انحرف بالطائرة فى قوة ، متفاديًا صاروخًا آخر ، وأطلق (أندريه) صرخة فزع ، عندما مرقت مقاتلة سوفيتية إلى جوار الهليوكوبتر ، وهتف فى رعب :

— يا للشيطان !!.. لقد أوقعوا بنا .. سيقتلوننا ..

ومع آخر حروف كلماته ، تحطمت مروحة الهليوكوبتر إلى شظايا صغيرة ، بعد أن أصابها صاروخ أطلقته مقاتلة سوفيتية أخرى ، ودارت الهليوكوبتر حول نفسها فى جنون ، ثم هوت نحو الثلوج ، وصرخ (أندريه) فى رعب هائل :

— إنها النهاية .. إنها النهاية .

* * *



ففى اللحظة ذاتها ، التى مالت فيها الهليوكوبتر ، عبر إلى جوارها تمامًا صاروخ قاتل ، أطلقته طائرة حربية ..

١١ ــ طريق الموت ..

دارت المقاتلات السوفيتية حول الهليوكوبتر ، وهى تهوى وسط غابة كثيفة ، على أطراف (موسكو) ؛ للتأكد من نتائج الهجوم .. ولم تكد تمضى لحظات ، حتى تحطَّمت الهليوكوبتر على سطح الأشجار ، وتناثرت أجزاؤها فى أرجاء الغابة ، ثم اشتعل خزَّانها ببقايا الوقود داخله ، وانفجرت فى دوىٍّ شديد .. فقال أحد الطيَّارين خلال جهاز اللاسلكى :

ــ نجحت المهمة .. تم تدمير الجاسوس المصرى ، نطلب الإذن بالعودة إلى القاعدة .

قفز (ياكوف) فى سعادة ، حينما التقط جهازه الصغير رسالة الطيَّار ، وصاح فى مرح :

ــ لقد انتصرنا يا رفاق .. هزمْنا الشيطان المصرى .

غمغم قائد الهليوكوبتر فى حنق :

ــ وخسرنا طائرتى أيضًا يا سيِّدى الرفيق الجنرال .

لم تخفِّف هذه العبارة من مرح (ياكوف) ، فأطلق ضحكة متوتِّرة ، وصاح :

ـ كل شيء يمكن تعويضه أيها الرفيق .. كل شيء .

ثم أردف في حماس :

ـ ما عدا المجد السوفيتي .

* * *

تأوَّه (أندريه) في ألم ، وهو يمسك كاحِله الملتوى ، وصاح في ذُعر يختلط بأوجاعه :

ـ لقد التوَى كاحِلي .. لقد دفعتني في قسوة ، وألقيت بي من ارتفاع أربعة أمتار كاملة .

غمغم (أدهم) في ضيق ، وهو يفحص ما تبقَّى من رصاصات ، في خزانة مدفعه الرشَّاش :

ـ هل كنت تفضِّل الموت محترقًا ، وسط حطام الهليوكوبتر ؟

استعاد ذهن (أندريه) مشهد (أدهم) ، وهو يدفعه خارج الهليوكوبتر ، ثم يقفز خلفه ، في سرعة ..

مبادرة مذهلة ، قبل ثانية واحدة من ارتطام الهليوكوبتر بقمم الأشجار ، فشحب وجهه ، وهو يتصوَّر ما كان من الممكن أن يصيبه ، لو لم يفعل (أدهم) ذلك ، ورفع عينيه إليه ، وسأله في حَيْرة :

ـ لماذا تفعل كل ذلك من أجلي ؟

غمغم (أدهم) في سخرية :

ـ من أجلك ؟!

ثم أردفَ في تهكُّم شديد :

ـ يبدو أنه من الضروري أن تفهم ما يحدث أيها الوغد .. لقد طلبوا في القاهرة ، وصول البضاعة سليمة من (موسكو) .. وكل ما أفعله أنا هو أن أحافظ على الشحنة ، حتى تصل على نحو لائق .

احتقن وجه (أندريه) ، وعاد يتأوَّه ، ويشد على كاحله صائحًا :

ـ لن يمكنني السير .. كاحِلي يؤلمني للغاية .

قال (أدهم) وهو يعلِّق مدفعه الرشَّاش خلف ظهره :

ـ هيَّا يا رجل .. ما هي إلا بضعة كيلومترات ، ونصل إلى قلب (موسكو) .

هتف (أندريه) في سخط :

ـ بضعة كيلومترات .. من السهل أن تقول هذا ، وأنت سليم معافَى .. أما أنا فلن أقدر على السير خطوة واحدة بكاحِلي الملتوِي هذا .

مال (أدهم) نحوه فجأة .. وهو يقول فى صرامة :

ـ سأحملك .

وفى لحظة واحدة ، كان قد قرن القول بالعمل ، وحمل (أندريه) كالطفل الصغير فوق كتفيه ، فصاح هذا الأخير فى غضب :

ـ مهلاً .. إنك تؤلم ساقى .

صاح به (أدهم) بغتة :

ـ الزم الصمت .

شعر (أندريه) بالخوف ، مع لهجة (أدهم) الصارمة ، فأطبق شفتيه .. ولكن (أدهم) لم يخطُ خطوة واحدة ، بل بدا منتبهًا للغاية ، حتى أن (أندريه) سأله فى مزيج من الحَيْرة والقلق ، وبصوت هامس :

ـ ماذا حدث ؟

مرَّت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيبه (أدهم) فى هدوء :

ـ يبدو أنهم يبحثون عنَّا أيها الوغد ، ويعاونهم فى ذلك رهط من كلاب البحث والمطاردة .

تسلَّل خوف شديد إلى أعماق (أندريه) ، وأرهف سمعه بدافع الرعب ، فتناهى إلى مسامعه صوت نباح متواصل ..

نباح أثار فى أعماقه ذُعر الموت ..

* * *

لم يدر (أندريه) ـ فى غمرة قلقه وخوفه ـ كم من الوقت ظل (أدهم) واقفًا ، صامتًا ، يستمع فى اهتمام شديد إلى صوت الكلاب وهى تقترب .. ولكنه فوجئ به يتحرَّك فجأة فى خطوات سريعة ، وهو يحمله فوق كتفيه ، ثم تتحوَّل خطواته إلى عَدْوٍ ، فهتف فى ذُعر :

ـ رويْدك يا سيِّد (أدهم) .. إنك تؤلمنى .

صاح (أدهم) ، وهو يواصل عَدْوَه فى سرعة :

ـ ألم تسمع أيها الوغد ؟!.. لقد اشتمَّت الكلاب رائحتنا ، وها هى ذى تسعى إلينا .

ارتجف جسد (أندريه) ، وهو يقول فى رعب :

ـ هل تعنى أن الكلاب تطاردنا ، وأن .... ؟

بتر عبارته فجأة ، حينما صك مسامعه صوت نباح قوى قريب ، تفوح منه رائحة الوحشية والدم .. وبرزت فجأة ثلاثة كلاب ضخمة الجثة ، من بين الأشجار ، واندفعت نحو الرجلين ، والزَّبَد يسيل من أشداقها ، وصرخ (أندريه) :

ـ كلَّا .. كلَّا ..



فى اللحظة التى قفزت فيها الكلاب الثلاثة نحو (أدهم)، قفز هو أيضًا نحوها ..

وامتدّت صرخته فى آهة طويلة عميقة ، عندما ألقى به (أدهم) أرضًا ، واستدار يواجه الكلاب الثلاثة ..

واتسعت عينا (أندريه) فى رعب .. حينما رأى الكلاب الثلاثة تقفز نحو (أدهم) ، وتنشب مخالبها فى جسده ..

* * *

كان الإجهاد قد وصل إلى مبلغه فى جسد (أدهم) ، ولكن حماسه كان يفوق تعبه ، ويجبر جسده على العمل الجيِّد المتفوِّق .. ولقد كان يعلم مدى خطورة وشراسة كلاب المطاردة السوفيتية ، ولكن هذا لم يمنعه من مواجهتها فى شجاعة ، وإن كان هدفه الأول هو عدم إطلاق النار عليها ، حتى لا ينكشف أمره من صوت رصاصاته ..

فى اللحظة التى قفزت فيها الكلاب الثلاثة نحو (أدهم) ، قفز هو أيضا نحوها ، وفى منتصف الطريق التقى بها ، وأنشبت الكلاب مخالبها فى جسده ، وهوى هو بقبضته على رأس أوَّلها وثانيها ، على حين ركل ثالثها فى بطنه بقوة رهيبة ..

عَوَت الكلاب الثلاثة فى ألم بعد أن هبطت على أقدامها ، وعادت تحاول إعادة تقييم خصمها القوى ، وهى تزوم ، وتزمجر فى غضب ، ثم انقضَّ أكثرها شجاعة على (أدهم) ، الذى

عاجله بلكمة صاعقة فى عنقه ، الذى تحطَّم فى صوت مسموع ، وسقط الكلب بين رفيقيه ، وندت من حلقه حشرجة أخيرة ، انتفض بعدها انتفاضة قوية ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ..

زمجر الكلبان الآخران فى وحشيَّة ، وأخذا ينقلان بصريهما ما بين (أدهم) ، الذى وقف يبادلهما النظرات فى تحدٍّ ورفيقيهما المجندل أمامهما ، ثم أطلق الكلبان المدرَّبان عواءً واحدًا امتزج بعضه ببعض ، واندفعا فجأة ، وفى اتجاهين متضادين نحو (أدهم) ، وقفزا إليه فى وحشيَّة ..

امتزج عواء الكلبين وزمجرتهما ، بتلك الصرخة القتالية القوية ، التى انبعثت من فم (أدهم) ، والتى هوَى بعدها بحافة راحته اليمنى ، على مؤخرة عنق أحد الكلبين ، فى نفس اللحظة التى اندفعت فيها قبضته اليسرى إلى أنف الكلب الثانى ..

سقط الكلب الأول صريعًا ، دون أن تبدرِ منه إلا حشرجة مكتومة ، على حين أطلق الثانى عواءً عاليًا شديدًا ، وتراجع فى ذعر ، وهو يحدِّق بعينيه المستديرتين فى وجه (أدهم) ، ثم لم يلبث أن أطلق لقوائمه العِنان ، وهو يلوِى ذنبه بين قائمتيه الخلفيتين .. فابتسم (أدهم) فى ظفر ، واتجه إلى (أندريه) قائلاً :

ـ هيَّا نواصل طريقنا أيها الوغد .

ولكن شيئًا ما فى نظرات (أندريه) أوقفه ..

رعب شديد فى عينى هذا الأخير ، أثار قلق (أدهم) ..

كان (أندريه) يوجِّه هذه النظرات إلى نقطة ما خلف (أدهم) ..

واستدار (أدهم) إلى حيث ينظر (أندريه) ، وفى لحظة استدارته ، سمع صوتًا يقول :

ـ لو لم أشاهد ما حدث بنفسى ما صدَّقت حرفًا واحدًا منه .

كان الصوت مألوفًا ، وكذلك كان الوجه ..

لقد كان الرفيق (ياكوف) ، وإلى جواره زميله (إيفانوف) ، وحولهما عدد هائل من الجنود السوفيت .

لقد كانت نهاية طريق الفرار ..

نهاية طريق الموت .

* * *

١٢ ــ رأس الثعبان ..

نفث (ياكوف) دُخان سيجارته فى توتُّر واضح ، وتبادل نظرة غامضة مع زميله (إيفانوف) ، ثم نظر نظرة باردة طويلة إلى (أدهم) و (أندريه) ، اللّذين وقف أحدهما رافعًا ذراعيه وسط ذلك العدد الهائل من الجنود ، على حين توسَّد الآخر الأرض شاحب الوجه ، يرتجف ، وهو يمسك كاحله الملتوِى ، ويتأوّه فى مزيج من الألم والرعب ..

نظر (ياكوف) فى عينى (أدهم) مباشرة ، وقال فى عصبيَّة :

ــ مِمَّ صنعتك المخابرات المصرية أيها الشيطان ؟

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ــ الله (سبحانه وتعالى) هو الذى خلقنى ، ووهبنى كل ما أملك أيها الرفيق .

تطلَّع إليه (ياكوف) فى شرود ، ثم مطَّ شفتيه ، وقال :

ــ هل تعلم كم كبَّدتنا من خسائر ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ ثلاث طائرات مقاتلة حديثة ، وهليوكوبتر .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى غضب :

ــ أضف إلى ذلك (دستة ونصف دستة) من جنود أفقدتهم الوعى ، ومدفعين رشّاشين ، وكومة من الذخيرة .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ هل تحب أن أدفع ثمنها جميعًا ؟

سيطر (ياكوف) على أعصابه ، وهو يقول :

ــ من العجيب أنك تمتلك القدرة على المرح فى أحلك الظروف .

ثم اقترب من (أدهم) ، حتى كاد وجهاهما يتلامسان ، وحدَّق فى عينيه مباشرةً ، وهو يسأله فى عصبيَّة :

ــ كيف يمكنك فعل كل هذا ؟.. كيف يمكنك الإفلات من كل هذه المواقف المعقَّدة ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال فى بساطة :

ــ لا يوجد موقف بالغ التعقيد يا عزيزى ، كل المواقف تحوى ثغرة واحدة على الأقل .. وكل ما أفعله هو كشف هذه الثغرة واستغلالها .

غمغم (ياكوف) فى حنق :

ــ هكذا ؟

ثم استدار فى انفعال ، وهو يستطرد :

ــ لست أدرى كيف أمكنك الإفلات من انفجار الهليوكوبتر .. ولكننى أرفض منطقك هذا عن وجود ثغرة فى أى موقف .

ثم عاد يلتفت إليه ، صائحًا :

ــ الموقف الذى تقفه الآن ، لا يحوى ثغرة واحدة .

أطلق (أدهم) ضحكة تهكّمية ، مثيرة للأعصاب ، وقال :

ــ هذا ما تظنه ، يا عزيزى الرفيق الجنرال .

عقد (ياكوف) حاجبيه فى غضب ، وقال :

ــ أنت تدّعى وجود ثغرة هنا إذن .

ثم أطلق ضحكة عصبيّة ، وأردف :

ــ يقتلنى الفضول لمعرفتها أيها الشيطان .. فرجالى يحيطون بك ، كما يحيط الثعبان الضخم بفريسته ، قبل أن يعتصرها ، ويحطِّم ضلوعها .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخرية ، وهو يقول فى هدوء :

ــ هذه هى الثغرة يا عزيزى .

بدت الدهشة على وجه (ياكوف) ، وقال فى عصبيّة :

ــ ماذا تعنى ؟

صاح (إيڤانوف) ، وهو ينظر إلى (أدهم) فى شك :

ــ حذار أيها الرفيق الجنرال ، إنه يتلاعب بك .

استدار إليه (ياكوف) فى حدّة ، وصاح فى غضب :

ــ اصمت يا (إيڤانوف) .

ثم عاد يستدير إلى (أدهم) ، ويسأله فى عصبيّة زائدة :

ــ هيًا أيها الشيطان المصرى ، أخبرنى بما تعنيه .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

ــ على الرغم من ضخامة الثعبان ، وشراسته ، إلا أنه كائنٌ ضعيفٌ .. يكفى تحطيم رأسه لشل عضلاته كلها دفعة واحدة .

ظهرت الحَيْرة ، مقترنةً بالغضب فى وجه (ياكوف) ، وهو يقول :

ــ ماذا يعنيه حديثك هذا ؟

وفجأة .. وفى أقل من نصف الثانية .. قفز (أدهم) نحو (ياكوف) ، واختطف مسدّسه من جيب معطفه ، ثم أحاط عنقه بذراعه ، وألصق المسدس بجبينه ، وقال فى سخرية :

ــ هذا هو ما يعنيه حديثى يا عزيزى الرفيق .

* * *

تسمَّر الجنود جميعهم فى مواضعهم ، وتصلَّبت أصابعهم على أزناد مدافعهم الرشاشة ، وظهر مزيج من الحَيْرة والقلق فى ملامحهم ، على حين جحظت عينا (ياكوف) ، من ضغط ذراع (أدهم) القوية ، وصاح (إيڤانوف) فى غضب :

ــ دَعْهُ أو نطلق النار عليك أيها المصرى .

أجابه (أدهم) فى سخرية ، وهو يجذب (ياكوف) من عنقه ، إلى نقطة آمنة :

ــ حاول ، وستقتل رئيسك المباشر أيها الرفيق (إيڤانوف) .. وأراهنك أنك ستقضى نصف عمرك فى تحقيقات إدارية بهذا الشأن .

عقد (إيڤانوف) حاجبيه ، وقال فى حِدَّة :

ــ بل ربما أنال وسامًا ، لمنعى جاسوسًا من الهرب .

صاح (ياكوف) بصوت مختنق :

ــ صَهْ يا (إيڤانوف) .. افعل ما يطلبه ذلك الشيطان ، وسنجد فرصة أخرى للإيقاع به بعد ذلك .

ظلَّ (إيڤانوف) عاقدًا حاجبيه ، وتصارعت فى رأسه أفكار شتَّى ..

إنه لا يدرى كيف سيكون شعور المسئولين ، لو أنه تسبَّب فى مقتل رجل له وزنه فى الحزب الحاكم ، مثل الرفيق (ياكوف) ..

حاول أن يزن الأمر ، بمقارنة مصرع (ياكوف) بالقبض على (أدهم) ، ولكن ذهنه المنفعل المشوَّش ، عجز عن اتخاذ قرار حكيم ..

ولم يمنحه (أدهم) الفرصة ، بل عاد يهتف بالروسية :

ــ ألقوا سلاحكم أيها الجنود ، حتى لا تصبحوا مسئولين عن مصرع زعيمكم وقائدكم .

تردَّد الجنود لحظة ، فى انتظار أوامر (إيڤانوف) .. ولكنه بدا أشد حَيْرةً منهم ، حتى ارتفع صوت (ياكوف) ، الذى بدا يشعر بحاجته للهواء :

ــ أطيعوه يا رفاق .. أطيعوه بحقِّ الشيطان .

خلَّص هذا الأمر المباشر الجنود من حَيْرتهم ، فألقوا أسلحتهم ، وكأنما يلقون معها عبء الاختيار ..

مائة جندى استسلموا لرجل واحد ..

رجل حطَّم رأس الثعبان ..

نمَّت نبرات صوت (أدهم) عن ارتياحه لما آل إليه الأمر ، وهو يقول فى لهجة آمرة صارمة :

— أريد سيّارة ، وسائقًا ماهرًا .

انفصل أحد الجنود عن رفاقه ، وأسرع إلى سيارة (ياكوف) ، فأدار محرّكها ، وتحرّك بها نحو (أدهم) ، الذى قال فى صرامة مماثلة :

— انقلوا الرجل ذا الكاحِل الملتوِى إلى السيارة .

أسرع جنديّان ينقلان (أندريه) إلى السيارة ، ثم جذب (أدهم) (ياكوف) من عنقه ، وجلس إلى جواره فى المقعد الخلفى ، ثم صاح بصوت سمعه الجميع :

— انطلق إلى الحدود الفنلندية مباشرة أيها السائق .

انطلق السائق بالسيارة ، ولم يكد يبتعد حتى خفّف (أدهم) ضغط ذراعه عن عنق (ياكوف) ، الذى شهق فى قوة ، وأخذ يدلك عنقه فى ألم ، وهو يقول فى صوت متحشرج :

— هل تظن عبور الحدود السوفيتية الفنلندية أمرًا هيّنًا أيها الشيطان ؟.. لقد أخطأت هذه المرَّة ، فقد سمعك الجميع تأمر السائق بالانطلاق إلى هناك ، وستجد كل الطرق مسدودة فى وجهك بعد لحظات قصار .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— هل تظن ذلك أيها الرفيق ؟

قال (ياكوف) فى حنق :

— لست أظنه .. أنا متأكد من كل كلمة نطقت بها .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخريةً ، واستدار إلى السائق قائلًا :

— قِفْ أيها السائق .

أوقف السائق السيارة بحركة حادة ، جعلت الجميع يندفعون إلى الأمام ، ثم ألصق (أدهم) فوّهة مسدَّس (ياكوف) بجانبه ، وقال فى صرامة :

— إنها نهاية الرحلة بالنسبة لك أيها الرفيق (ياكوف) .

شحب وجه (ياكوف) ، وقال :

— هل ستقتلنى ؟

ابتسم (أدهم) وهو يقول فى هدوء :

— لم أعتد قتل الشجعان العباقرة أيها الرفيق .. إننى أطلب منك الهبوط فحسب .

تطلّع إليه (ياكوف) فى دهشة ، ثم أسرع يغادر السيارة ، وتبعه السائق بعد أن أمره (أدهم) بذلك .. وهنا احتلّ (أدهم) مقعد القيادة ، وقال وهو يدير محرّك السيارة :

— إلى اللقاء فى (فنلندا) أيها الرفيق (ياكوف) .

قال (ياكوف) فى غضب :

ــ لن تطأها قدماك أبدًا أيها الشيطان .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة عالية ، ثم انطلق بالسيارة ، فأسرع (ياكوف) ينتزع جهاز الإرسال الصغير من جيب معطفه ، وصاح فى انفعال :

ــ الجاسوس ينطلق نحو الحدود الفنلندية .. سُدُّوا كل الطرقات .. أطلقوا النار فور رؤيته .. هل تفهمون ؟.. أطلقوا النار فور رؤيته ...

* * *



١٣ ــ المرحلة الأخيرة ..

صاح (أندريه) فى حنق ، وهو يجلس إلى جوار (أدهم) ، فى سيارة (ياكوف) :

ــ أكان من الضرورى أن تشرح للجميع وُجهتنا ؟.. إنك بذلك تخلق لنا آلاف المشاكل ، فى الطريق الطويل ، من هنا إلى (فنلندا) .

ضحك (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ ومن قال إننا سنذهب إلى (فنلندا) أيها الوغد ؟

اتسعت عينا (أندريه) فى ذهول ، وقال :

ــ ماذا تعنى ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ أعنى أن أنظار السوفيت جميعًا ستذهب إلى (فنلندا) ، على حين لن نتخذ نحن هذا الطريق أبدًا .

صاح (أندريه) فى ذُعر :

ــ إلى أين نذهب ؟

انحرف (أدهم) فجأة فى طريق جانبى ، وقال فى هدوء عجيب :

ـ إلى (موسكو) أيها الوغد .

* * *

ظلّ الذهول مرتسمًا على ملامح (أندريه) بأقصى صورة ، حتى عَبَرت السيارة مدخل (موسكو) ، وخفَّف (أدهم) من سرعتها ، وهو يعبُر طرقات المدينة الحمراء ، وهنا هتف (أندريه) :

ـ ألا تخشى أن يوقفونا ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ ربَّما فعلوا .. ولكن هذه وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى هدفنا ، خاصة بكاحلك الملتوى هذا .

بدت من بعيد دوريَّة سوفيتية ، توقف السيارات ، للاطلاع على أوراق راكبيها ، فارتجف (أندريه) ، وهو يقول فى توتُّر :

ـ لقد أوقعوا بنا .

انحرف (أدهم) فجأة فى طريق جانبى ، وأوقف السيارة ، ثم هبط منها ، وأسرع يعاون (أندريه) على الهبوط ، ثم حمله من تحت إبطيه ، وأسرع يتحرَّك إلى نهاية الطريق .. وشعر

(أندريه) بآلام مُبرِّحة فى ساقه ، ولكنه أطبق شفتيه ، ولم ينبس بكلمة واحدة ..

بدا الطريق طويلًا ، وهما يقطعانه وسط المارَّة ، كما لو أن أحدهما جندىّ أصيب بجرح ما ، والآخر يعاونه على السير ، حتى أقرب نقطة إسعاف ..

ساعدهما زيُّهما ، والألم الواضح فى ملامح (أندريه) ، على ألَّا يوقفهما أحد ، حتى وصلا إلى شارع واسع .. تنهَّد (أدهم) فى ارتياح ، وشملت وجهه ابتسامة رائعة ، وهو يقول فى صوت متهدِّج منفعل :

ـ يبدو أننا نجحنا أيها الوغد .

رفع (أندريه) عينيه إلى حيث ينظر (أدهم) ، وارتجف قلبه ارتجافة قوية ، وهو يحدِّق فى العلم الذى يرفرف ويخفق فى قوة ، فوق مبنى أنيق يتوسَّط الشارع ..

كان علم مصر ....

بعثت رؤية السفارة المصرية مزيدًا من القوة فى نفس (أدهم) ، فأسرع الخُطَا نحوها ، حتى أصبح على قيد خطوة واحدة منها ، وهنا سمع صوتًا صارمًا من خلفه يقول فى خشونة :

ـ أوراقكما أيها الرفيقان .

استدار (أدهم) فى هدوء ، فطالعه وجه ضابط سوفيتى ، يقف خلفه جنديان مسلَّحان ..

مضت فترة من الصمت ، و (أدهم) يتبادل النظرات مع الضابط السوفيتى ، حتى قال هذا الأخير فى صرامة :

ــ ألم تسمعنى أيها الرفيق الجندى ؟.. إننى أطلب أوراقك ، وأوراق زميلك .

كاد (أندريه) يسقط من فرط رعبه ..

لقد فشلت خُطَّة الهروب على بعد خطوات .. بل خطوة واحدة من السفارة المصرية ، ولكن (أدهم) لم يرتجف .. بل أجاب فى هدوء :

ــ لقد سرقت أوراقنا أيها الرفيق الضابط .

سأله الضابط فى دهشة :

ــ سرقت ؟!.. إن ما تقوله يعرِّضك لعقوبة شديدة أيها الرفيق الجندى .. إن ضياع الأوراق العسكرية جناية خطيرة .

أشار (أدهم) إلى بوابة السفارة المصرية ، وقال :

ــ لقد سرقها أحد العاملين هنا ، وأصاب زميلى فى كاحِله ، وكنا بصدد اللِّحاق به عندما ....

قاطعه الضابط السوفيتى فى غضب :

ــ أحد العاملين هنا ؟ ويلٌ لهم !!

ثم تحرَّك فى خطوات سريعة إلى فناء السفارة ، ولحق به (أدهم) وهو يحمل (أندريه) ، وخلفهما الجنديان المسلحان ..

ولم يكد هذا الفريق يتوسَّط فناء السفارة المصرية ، حتى ابتسم (أدهم) ، وقال فى سخرية ، وبلهجة تنمّ عن ارتياحه .

ــ مهلًا أيها الرفيق الضابط .. لا سلطة لك فى هذا الفناء .. إنه أرض مصرية خالصة ، طبقًا لكل الاتفاقيَّات الدولية (*) .

(*) ينص القانون الدولى على أن الأرض الممنوحة لسفارة أى دولة ، فى دولة أخرى تعد أرضًا تابعة لسفارة الدولة المستضافة ، ولا سلطان فيها للدولة المضيفة .

تطلّع الضابط إليه فى دهشة ، وقال فى غضب :
ـ ماذا تقول أيها الجندى ؟
قال (أدهم) فى صرامة :
ـ لست جنديًا أيها الرفيق الضابط .. أنا مواطن مصرى ، وأقف الآن على أرض تابعة لدولتى ، ولن يمكنك اعتقالى ، حتى بتهمة ارتداء زىّ عسكرى .

احتقن وجه الضابط السوفيتى ، وفتح فمه لينطق بعبارة ساخطة ، ولكنه عاد يطبق شفتيه ، وكأنه لايريد لتابعيه أن يشهدا مزيدًا من السخرية منه ، وظلَّ يحدّق فى وجه (أدهم) طويلًا ثم أشار إلى الجنديَّين ، وقال فى حنق :
ـ هيَّا بنا يا رفاق .. اتركا الرجلين يحلّان مشكلتهما بنفسيهما .

وغادر السفارة فى خطوات سريعة محنقة ، تتابعه ابتسامة (أدهم) ، التى تفيض ظفرًا وسخرية ..

كان بوضع قدميه داخل السفارة المصرية ، قد وقع وثيقة انتصاره هذه المرَّة ، وأضاف نصرًا جديدًا إلى ملف (رجل المستحيل) ..

* * *

١٤ ـ ختام الجزء الثانى ..

جلس (قدرى) البدين فى حجرته شاردًا ، يداعب قطعة غير متناسقة من الصلب ، كان يعدّ منها تحفة فريدة من تحفه المزوَّرة ، التى يملأ بها حقائب رجال المخابرات المصرية ، والتى كثيرًا ما تعاونهم فى مهام شديدة الصعوبة ، عندما اقتحم المقدّم (حازم عبد الله) حجرته ، وصاح به فى مرح :
ـ كيف حالك أيها البدين ؟.. ماذا أصابك فى الآونة الأخيرة ؟.. إنك تفقد الكثير من وزنك كل يوم .
رفع (قدرى) إليه عينين دامعتين ، وقال :
ـ لا يمكننى أن أنسى (أدهم) يا (حازم) .. لقد كان لى نعم الرفيق ، وخير صديق .
هتف (حازم) فى مرح :
ـ هذا ما أتيت إليك بشأنه يا صديقى البدين .. لقد وصلت الآن برقية بالشفرة إلى مكتب المدير ، من سفارتنا فى (موسكو) .. خمِّن أى توقيع تحمل ؟

اتسعت عينا (قدرى) ، وتصلَّبت أطرافه ، وارتعدت شفتاه ، وتهدَّج صوته وهو يقول فى انفعال :

— هل .. هل تقصد ؟

صاح (حازم) فى سعادة :

— إنه هو يا رجل .. إنه (أدهم صبرى) .

ظلَّ (قدرى) يحدِّق فى وجه (حازم) ، وكأنه لا يصدِّق ما يسمعه .. ثم أجهش فجأة بالبكاء ، وتوقَّف عنه بغتةً أيضًا ، وهو يسأل (حازم) فى انفعال :

— أين البرقية ؟

أجابه (حازم) فى عاطفة :

— فى مكتب المدير و ....

لم يكد ينطق بنصف العبارة ، حتى اندفع (قدرى) برشاقة لا تناسب حجمه الضخم ، وأسرع يقتحم مكتب مدير المخابرات ، الذى التفت إليه فى دهشة ، فتلعثم (قدرى) ، وارتبك ، وقال :

— معذرة يا سيِّدى .. لقد .. لقد ....

فهم مدير المخابرات الأمر فى سرعة ، فابتسم وقال :

— تقدَّم يا (قدرى) .. هاك برقية (أدهم) ..

عادت الدموع تنسال فى هدوء ، من عينى (قدرى) ، وهو يلتقط البرقية فى لهفة ويقرؤها فى استغراق ، ثم رفع عينيه الدامعتين إلى مدير المخابرات ، وغمغم فى صوت متحشرج :

— إذن فقد نجا .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

حرَّك مدير المخابرات كفه ، على نحو يوحِى بسعادته ، وقال :

— هذا الشاب رائع .. إنه يقول فى برقيته إن لديه معلومات مؤكدة ، عن نجاة (منى) أيضًا ، ولكنه لم يلتقِ بها بعد .

قال (قدرى) فى ثقة :

— لن يعود إلَّا بها يا سيِّدى .

أومأ مدير المخابرات برأسه موافقًا ، وقال وهو يمطُّ شفتيه :

— هذا ما توقَّعناه جميعًا .

ثم أردف بعد لحظة من الصمت :

— لقد فكَّرنا فى البداية فى مطالبته بالعودة ، ولكننا رأينا أنه سيخالف أوامرنا لو فعلنا ، ما دام لم يستعد زميلته بعد ؛ لذا فقد تركنا له حرِّية التصرُّف .

ابتسم (قدرى) فى سعادة ، وهو يقول :

— حسنًا فعلتم يا سيِّدى .

هزَّ مدير المخابرات كتفيه ، وقال مبتسمًا :

ـ هذا هو الأسلوب الوحيد للتعامل مع (رجل المستحيل) يا (قدرى) .

* * *

جلس (أدهم) شاردًا ، يتطلَّع من خلف نافذة مكتب السفير المصرى ، إلى مدينة (موسكو) ، حتى أنه لم يشعر باقتراب السفير ، إلَّا عندما قال فى هدوء :

ـ لقد رحل (أندريه) إلى القاهرة ، بصحبة الملحق العسكرى هنا ، وبجواز سفر مصرى ديلوماسى ، حتى لا يعترضه السوفيت .

غمغم (أدهم) :

ـ لقد نال هذا الحقير أكثر مما يستحق .

مطَّ السفير شفتيه ، وقال :

ـ لقد تحمَّلت أنت من أجله الكثير من متاعب السوفيت و . . .

قاطعه (أدهم) فى هدوء :

ـ إننى لا أحقد على السوفيت يا سيِّدى ، لقد كانوا يؤدون واجبهم نحو وطنهم ، وهذا يزيد من إعجابى بهم .. فلو أن الأمور انعكست ، لفعلنا ما هو أكثر من ذلك فى مصر ، ضد أى جاسوس أجنبى .. وصدِّقنى أننى أشعر بالاستياء لما سبَّبته لهم من قلق .

ضحك السفير ، وهو يقول :

ـ قلق ؟!.. بل قُل مَرَارَةً يا صديقى .

غمغم (أدهم) دون أن يبتسم :

ـ هذا يزيد من أسفى يا سيِّدى السفير .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم غمغم السفير :

ـ أما زلت مصرًّا على عدم العودة إلى القاهرة ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ ليس قبل أن أستعيد (منى) يا سيِّدى .

ثم سرح ببصره فى سماء (موسكو) ، وهو يردف :

ـ إنها ليست مجرَّد زميلة يا سيِّدى السفير ، إنها تحتلّ فى حياتى مكانًا خاصًّا متميِّزًا .

أومأ السفير برأسه ، وقال فى هدوء :

ـ أعلم ذلك أيها العقيد .

ثم أردف فى اهتمام :

ـ ولكن ما من دليل واحد لدينا ، على وجودها فى (موسكو) ، أو على استمرار بقائها على قيد الحياة .

أشار (أدهم) إلى (موسكو) عَبْر النافذة الزجاجية ، وقال :

ـ قلبى يحدثنى أنها هنا يا سيِّدى ، وسأتبعه هذه المرَّة .

تطلَّع إليه السفير فى إعجاب ، وهمس :

ـ أنت رجل رائع يا (أدهم) .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال فى حرارة :

ـ بل قل مصر هى الرائعة يا سيِّدى .. ولاتنس أن كل ما سيبقى فى أذهان السوفيت ، هو أن الرجل الوحيد ، الذى نجح فى الفرار من معتقلهم الأسطورى كان مصريًّا .. وأن الوحيد الذى نجح فى اجتياز قضبانهم الجليدية ، كان يحمل اسم مصر .

* * *

[انتهى الجزء الثانى]

رقم الإيداع : ٣٦١٩